التفكير عند الإِنسان

تأليف

د. أَحمد فائق

الكتاب: التفكير عند الإنسان

الكاتب: أَحمد فائق

الطبعة: **2021**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس: 35878373

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أَثناء النشر

فائق، أحمد

التفكير عند الإنسان / أحمد فائق

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

121 ص، **18*21** سم.

الترقيم الدولي: **3 – 070 – 991 – 977 – 978**

أ – العنوان رقم الإيداع: **22403 / 2020**

التفكير عند الإِنسان



ما هو التفكير؟

كثيرًا ما نستعمل كلمة التفكير دون أن نعي تمامًا ما نقصد. ورغم ذلك لا نخطئ في إستعمال تلك الكلمة أو في فهمها. ولا شك أنه من الطريف أن نجيب عمن يسألنا... ما التفكير؟ إن هذا السؤال يدعونا إلى التفكير في التفكير.

تستعمل كلمة التفكير لتدل على أكثر من قصد. فأحيانًا نستعملها لتدل على كل ما يدور في الذهن. فهذا يفكر في حال الدنيا، وذاك يفكر في أمر عرض له منذ أيام، وثالث يفكر فيما ينظره من بدائع الطبيعة. وأحيانًا أخرى نستعمل كلمة التفكير في حدود ضيقة، فنقول إن الإستقراء والإستدلال – قوام العمليات العقلية في نظر علماء النفس – هما ما يقصدان بكلمة التفكير.

ولكن مهما يختلف إستعمالنا لكلمة التفكير، فلدينا من الإتفاق في شأنها ما يشجعنا على التعرض لتعريفها والتفكير فيها. فنحن إن قلنا إن هناك من يفكر في حال الدنيا، إنما نعني أنه يصادف في أمور حياته ما يحيره ويحثه على فهم هذه المحيرات. وإذا قلنا إن ذلك الشخص يفكر في سؤال لقياس ذكائه، فنحن أمام موقف مشابه إذ أن لديه مشكلة تحتاج منه إلى الحل. أي أن التفكير ما هو

إلا نشاط الإنسان.. أصله في عدم إتزان واقعه الشخصي وفرعه في حاجته إلى تعديل سلوكه ليعود الإتزان بينه وبين الواقع من جديد مهما تكن صورة عدم الإتزان أو ضيق نطاق السلوك.

وليس هذا بالتعريف الدقيق للتفكير. فكل نشاط يقوم به الإنسان أصله في عدم الإتزان وغايته إعادة الإتزان. إلا أننا إذا نظرنا إلى التفكير من هذه الزاوية، أصبح لدينا أتجاه – إن لم يكن دقيقًا – فهو واضح لإستكمال تعريفنا له. فالإنسان يعيش في واقع معين، وله بذلك الواقع علاقات وشيجة. إلا أن تلك العلاقات تتغير وتتعدل بإستمرار. فالإنسان نفسه يتغير كما أن بيئته وواقعه عرضة للإختلاف.. فكما يتغير نشاط الجسم – إذا أختلفت أمور المآكل – يتغير نشاط العقل إذا جد على ما يبحثه وينشط من أجله جديد.

ماذا وراء تفكيرنا؟

إذا نظرنا حولنا، لوجدنا أن عالمنا ثري بالموجودات، غني بالمثيرات، ونحن فيه جزء منه. ورغم زحمة واقعنا بالأشياء المختلفة فإننا لا نكاد نشعر بها شعورًا ملحًا، بل نتعامل معها ونتصرف فيها دون إنتباه كامل إليها. ولكن إذا حاول أحدنا أن يحصر الأشياء التي تملأ غرفته حيث يعيش سنين، لأدرك بعد فترة وجيزة أن هذا العمل يحتاج منه وقتًا طويلًا وجهدًا لم يقدره تمام التقدير. وربما أدرك أيضًا أنه لابد مغفل بعض ما بالحجرة. ويعجب بعد ذلك أنه عاش في تلك

الحجرة عارفًا كل ما بها دون وعي تام، بل لعله أدعي لنفسه معرفة ما بالحجرات المشابهة أيضًا.

ذلك الإدراك – غير الإرادي – بما يملأ واقعنا من أشياء، يكاد يكون من قبيل القوى السحرية إذا لم ندرسه، ويصبح مادة لدراسة ممتعة منظمة إذا عرفنا أساسه. لنأخذ مثالنا السابق وسيلة لدراسة سطحية لتلك القوة السحرية التي تمكننا من آلاف العناصر والموجودات دون إرادة منا. إن أول خطوة يقوم بها الشخص في حصره لما في حجرته هي إختبار نقطة البدء. فبعد أن يعبر الحجرة بعينيه ويتلمس بعض ما بها بيديه أو بحواسه الأخرى يشرع في تصنيف ما بها، فيسرد كل ما هو مصنوع من الخشب حتى ينتهي من ذلك، فينتقل إلى ما هو مصنوع من النسيج ثم الورق ثم من غيرها من العناصر، وأخيرًا يجد أنه أستطاع حصر كل ما بالحجرة.

تبين مما سبق أن في أذهاننا ما يمكن تسميته بملخصات الكون.... تلك التي تجعلنا إذا قابلنا شيئًا ما ندرجه تحت لفظ يشمل غيره من الأمور التي لنا بها دراية سابقة.... تلك التي تجعل آلاف الموجودات والعناصر تتحول إلى عدد صغير من الأفكار لتعطينا القدرة على إستيعابها والتعامل مع الجديد منها في ألفة.

ولكن لنا أن نتساءل ونحن على أبواب فكرة غامضة.... فكرة «ملخصات الكون»... لنا أن نتساءل ما الذي يلخص الكون؟

لو قارنا بين الإنسان والحيوانات الأخرى، لوجدنا أن الإنسان يتميز بقدرته على الكلام. فالحيوانات جميعًا لا تتكلم بل تصدر عددًا محدودًا من الأصوات التي تحمل معاني محدودة لبني جلدتها. أما الإنسان فيستطيع أن يصدر عددًا لا نهائيًا من الأصوات وفي نبرات مختلفة تحمل من المعاني ما يصعب حصره. والفرق لا يكمن فقط في عدد الأصوات وعدد معانيها.. بل في أمر أشد خطورة. فقد لاحظ علماء الحيوان أن حيواناتهم لم توهب – ولو بشكل أولي – وسيلة للتعبير الدقيق عما تمارسه من فعل.. فصرخات الخوف أو دعوات الحب عند الحيوانات هي علامات صوتية أو حركية ثابتة تحمل معنى واحدًا وعامًا لغيرها من الحيوانات.. فمن ملاحظاتهم على خلايا النحل وجد أنه عندما تكتشف نحلة ما في الخلية مصدرًا للرحيق تعود إلى الخلية وتؤدي ما يسمى بالرقصة الدائرية «تدور إلى اليمين في دائرة أفقية ثم إلى اليسار في دائرة أفقية» أو ما يسمى بالرقصة الإهتزازية «وهي نوع من الحركات». وبعد الإنتهاء من ذلك تجد النحل يطير دون إرشاد إلى مكان الرحيق. وظن البعض أن للنحل لغة حتى قام «كارل فون فريش» بدراسة أصل تلك الرقصات.

تبين لهذا العالم أن تلك الرقصات تحدد مكان الرحيق عن طريق عدد الدوائر التي ترسمها النحلة وعن طريق ميل محورها

بالنسبة إلى الشمس. وبذلك عادت لغة النحل من جديد لكي تصبح إشارات لا تزيد. ويعلق «بنفيست» على ذلك بقوله إن لغة النحل تلك تختلف عن لغة الإنسان في كونها لغة تعتمد على الحركة الجسمية ولذلك لا تؤدي وظيفتها إلا في ظروف تسمح بالإدراك البصري.. وهذا ما لا يحد لغة الإنسان. كما أن لغة النحل تفتقر إلى الحوار، فهي بلاغ لا يفسح المجال إلى الإجابة فالنحلة التي لم تشهد الرقصات لا تستطيع الإستجابة لرسالة النحلة الراقصة ولا يمكن لنحلة أخرى أن تنقل إليها تلك الرسالة. أما الإنسان فيمكنه أن يخبر أمرًا أخبره غيره إذا كلمه عنه، بل إننا الحيوان الوحيد صاحب التاريخ... فما خبره أجدادنا نقلته لنا أحاديثهم وما زلنا نتقلها إلى أبنائنا. ثم هناك إختلاف ثالث جوهري في مضمون رسالة النحل. فالنحل قادر فقط على نقل مكان الطعام.. وكل ما يجد من تغيير يكمن في تحديد بعده وإتجاهه.. وليست هناك رقصات أو حركات لغير ذلك من الأمور. فالرقصة الوحيدة لدى النحل تعني معنى وحيدًا، أما الرمز أو الحركة لدى الإنسان فإنها تحمل أكثر من معنى. ويمكننا أن نجد فارقًا رابعًا في أن لغة النحل لا يمكن تحليلها. فالرقصات تشير إشارة شاملة إلى مضمون كلي. أما لغة الإنسان فقابلة للتحليل. فمن الممكن أن نحلل مضمونها إلى أجزاء

ونقابل بين كل جزء وبين العناصر التي تتناولها. ويكفي أن ننظر إلى إمكانيات الترجمة من لغة إلى لغة.

مما سبق نجد أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يتمتع بإمتيازات اللغة. إنه يستطيع أن يصدر العديد من الأصوات وينغمها ويضيف إلى بعضها أجزاء ويحذف من بعضها أجزاء فيختلف معناها. إنه يرتب تلك الأصوات بصورة مختلفة لينقل إلى بني جلدته خبرات عديدة بكلمات قليلة. إنه يستغل اللغة في تلخيص واقعه.. إن لغته هي «ملخصات كونه».

لقد مكن نمو مخ الإنسان من قيامه بتأجيل وتعديل وتركيب إستجاباته بحيث يملأ الفراغ ويقلل الخلط في الإستجابات المباشرة وذلك عن طريق إدخال الرموز، وعن طريق العلامات اللفظية حتى يضيف خبرة غيره إلى خبرته. إن الكلمات التي يستعملها الإنسان هي في الواقع رموز تلخص له قطاعات كبيرة من واقعه. فلو أخذنا كلمة القلم، لوجدنا أنها قد تعني لنا قلمًا بذاته كما أننا قد نفهم منها مجموعة كبيرة من الأدوات – المختلفة التي تؤدي وظيفة واحدة. إن عالمنا يذخر بالأشياء التي تختلف فيما بينها ولكننا نميل إلى معاملة كل الأشياء التي بينها شبه، بإعتبارها منتمية إلى قطاع واحد.. إننا نطلق عليها كلمة تحمل معناها جميعًا. فإذا أردنا التخصيص أضفنا إلى تلك

الكلمة كلمة أخرى فينعزل الشيء ليستغل بما نريد له من تخصص. فكلمة «القلم» تنقل إلينا في لحظة واحدة مئات من أنواع الأقلام. فلو أضفنا إلى ذلك كلمة الصغير تحدد لنا القلم المقصود. وكلمة «الأخضر» في ذاتها تلخص لنا العديد من درجات اللون الضارب إلى الإخضرار، كما أن «الصغير» لا تقل عن ذلك قدرة على حصر مجال تفكيرنا.

نستطيع الآن أن نجد وراء تفكيرنا عملية تلقائية للتعامل مع الأشياء المختلفة بإعتبارها شيئًا واحدًا ما دام بينها جوانب متشابهة. كما أن تلك العملية تتغير أيضًا تلقائيًا كي تعزل الشيء عما يشابهه لتعامله معاملة خاصة تبعًا للظروف. ويتم ذلك التعميم والتخصيص عن طريق اللغة، التي بها تكسب الأشياء صبغتها العامة ولونها الخاص. إن تفكيرنا إقتصادي مرن بالقياس إلى تفكير الحيوانات، غني وسخي في مدنا بأساليب عديدة للتعامل مع عالمنا.. يستند على دعامة قوية هي اللغة التي تكسبه كل صفاته. إنه تفكير يرمز الأشياء فيلخصها ويجرد الخصائص فيعممها.

كيف نختلف في تفكيرنا:

إذا جازفنا – ولو مؤقتًا – وأعتبرنا أن النشاط العقلي الذي يبذله الإنسان لتكوين علاقته بواقعه هو التفكير، فيمكننا دراسة إختلافاتنا في التفكير عن طريق دراسة علاقاتنا بالواقع. وليست

مجازفتنا تلك مغامرة في كلها، فقد لاحظنا أن الإنسان يشرع في التفكير كلما أعترض أتزان علاقته بالواقع معترض. كما أن تفكيرنا هذا موجه إلى إعادة الإتزان إلى سابق عهده. وكلما كان تفكيرنا في الأمر مناسبًا، عاد الإتزان سريعًا وأقرب إلى التمام. لذلك ليس بالمغامرة أن نعتبر التفكير وطرقه المختلفة حبالًا تصل بيننا وبين واقعنا.

وقد سبق أن وصلنا إلى أن وراء تفكيرنا عملية أختزال للواقع. فلغتنا تمكننا من أن نختصر ما يملأ عوالمنا إلى عدد قليل من الأفكار حيث يقوم الكلام بنقلها منا وإنتقالها إلينا. وعلينا الآن أن نوضح بصورة أدق ما تختصره الكلمات.

ولو نظرنا إلى شيء من الأشياء التي نعرف لها أسمًا، يمكننا أن نحلله إلى ما يسمى «بالشكل» وما يسمى «بالمضمون». فالمقعد مثلًا له شكله الذي يتفق مع أشكال العديد من المقاعد – حتى لو أختلفت في بعض تفاصيلها. كما أن كلمة «المقعد» تحمل إلينا معنى يتضمن الجلوس والراحة. فلو أردنا أن نعرف كلمة «مقعد» عرفناها من حيث شكل الشيء الذي تعبر عنه، ومن حيث مضمون هذا الشيء. وتصلح تلك الفكرة بالنسبة للأشياء المعنوية المجردة أيضًا. فالإخلاص فكرة غير مادية شكلها في أفعال يقوم بها الكائن ومضمونها في قيمتها الأخلاقية.

فعالمنا المادي والمعنوي في حقيقة أمره، ينقسم إلى شكل ومضمون. وتقوم اللغة بدور مزدوج في ربطنا بعالمنا. فمن جانب نرى أن الكلمات تلخص لنا الموجودات الكثيرة، وتحل محل أنواعها المختلفة. ومن جانب آخر تقوم الكلمة بدور الوسيط بين شكل ومضمون الموجودات التي تعبر عنها. فكلمة «مقعد» إنما تعني كل المقاعد – مهما تباينت – أي أنها تحل محل تلك الأشياء التي ترتكز على أربعة أرجل أو ثلاثة والتي لها جزء يستر عليه الظهر أو لا تتكون منه.. وهكذا فإن كلمة «مقعد» هنا إنما تحمل إلينا مفهوم المقاعد عمومًا، كما أن كلمة «المقعد» من جانب آخر تشمل ما لتلك الأشياء من شكل ومضمون. فإذا قال شخص لآخر أعطني «مقعدًا»، فإن الآخر سيفهم من هذا أن مخاطبه يريد شيئًا ذا صفات خاصة وله أستعمال معين. ولا حاجة بنا إلى أن نزيد الكلام عن فائدة اللغة في هذا المجال. فالكلمة هنا تفيد تركيزًا في أنتباه المستمع على «مفهوم» تندرج تحته آلاف الأشكال. كما أنها قد تحل له مشكلة إذا لم يجد بين يديه شيئًا له الشكل المتعارف عليه بالنسبة للمفهوم.. فإنه على الفور سيعمد إلى شيء له نفس المضمون دون التقيد بالشكل.. فربما أعطى مخاطبه – الذي طلب المقعد – صندوقًا يصلح للجلوس.

يمكننا الآن أن نشير إلى ثلاثة أوجه لإختلافات التفكير عند الإنسان. أول تلك الأوجه إختلافنا من حيث قدرتنا على إستخلاص «المفاهيم» – أي الكلمات والرموز التي تلخص لنا الموجودات – ومن حيث قدرتنا على إستعمالها. وثانيها إختلافنا من حيث الميل إلى النظر إلى الأشياء. فهناك من يميل إلى الإهتمام بشكل الشيء وهناك من يفضل الإرتباط بمضمون الشيء. وثالثهما إختلافنا في قدرتنا على التنقل بين شكل الشيء ومضمونه لنلم بجوانبه المختلفة. فالكلمة التي تحمل لنا جانبي الشكل والمضمون قد تجعل بعضنا أكثر إنتباهًا إلى الشكل، حتى أنه ليعجز في بعض الأحيان عن التخلص من أول إنطباع تنقله إليه الكلمة. وإن كنا نتكلم هنا عن أوجه ثلاثة تؤدي إلى إختلافاتنا في التفكير، فإنما نعني الإختلافات البسيطة التي لا تؤدي إلى شذوذ عملية التفكير أما شذوذ عملية التفكير فنرجئ الحديث عنها حتى تتبينها بتفصيل أكبر.

(1) اختلاف القدرة على التعامل بالمفاهيم:

إذا لاحظنا طفلًا في منتصف سنته الثانية، لوجدناه يفكر بطريقة تمتعنا وتدهشنا في نفس الآن. فلو أراد هذا الطفل الخروج مع أمه إلى الحديقة قال «خرج»، وإذا رأى الخادم آتيًا من الخارج ورغب في أن يعبر عما يراه قال «خرج». وفي كلتا الحالتين يعبر هذا

الطفل بنفس الكلمة على فعلين عكسيين تجمعهما صفة واحدة هي «الغياب». ففي الحالة الأولى تقوم كلمة خرج مقام جملة طويلة تعبر عن رغبته في الخروج أو «الغياب» عن المنزل وفي الحالة الثانية تقوم كلمة خرج مقام جملة تفصح عن إدراكه أن الغائب قد عاد. من هذا المثال نتبين أن لغة الطفل لا تمكنه من أن يخصص لكل نوع من الغياب كلمة مناسبة.

قد يرى البعض أن عجز الطفل عن إيجاد الكلمة المناسبة هو الذي جعله يخلط بين الوضعين.. إلا أننا نتبين أن ما يشغل بال الطفل هو الغياب. وليس الحضور بعد الغياب أو الغياب بعد الحضور. إن هذا الطفل لا يستطيع من جانب أن يستخلص مفهومًا نقيًا للغياب، كما أنه لا يعنيه كثيرًا نوع الغياب.. ثم ينتقل نفس الطفل وهو في طريقه إلى سنته الثالثة أو بعد أن يتجاوزها ليعبر عن غياب الأب عن المنزل بقوله «ذهب إلى العمل» لا يميز في ذلك بين غياب في أوقات العمل أو غياب في دونها.

إن اللغة هنا لا تعوزه في التعبير الصحيح في بعض الأحيان، ولكنها لا تفيده إذا أحتاج الأمر إلى زيادة دقة إستعمال مفهوم الغياب. ومع التطور يصبح الشخص قادرًا على إستعمال كلمات دقيقة لوصف مركز للأحداث. إن التطور إنما هو تطور في القدرة على إكتساب المفاهيم وإختبارها ومن إستعمال كلمات بعيدة عن

التعميمات التي تغرينا بها اللغة. إننا في نضوجنا نميز في المفاهيم قدرتها على التعميم، ولكننا نجد في لغتنا أيضًا ما نعبر به عن الخصوص إذا أحتاج الأمر.

إن لغتنا تميل إلى النماء بحيث تضيف إلى نفسها كلمات وعبارات تعيننا على أن نزيد من التخصيص إذا أردنا تخصيصًا، وتفيدنا في أن نعود بالخاص إلى بنائه العام. إن لغتا تميل إلى الكلمات التي تفر من الإشتراك مع غيرها في نقل معنى آخر، ولكنها تبقينا دائمًا على أتصال بالأصل. ويكفي أن نلاحظ رجلًا بسيطًا في تفكيره يسعى إلى توضيح فكرة ما حتى نجد أن ما يلقاه من صعوبة يتركز في حاجة إلى كلمات متخصصة تنقل وجهة نظره بدقة. ولو قارنا حديث ذلك الرجل بحديث رجل على قسط من رجاحة العقل لوجدنا الأخير متمكنًا من ناصية الأمر لرصيده من لغة دقيقة وصافة.

ولكن هل نصل جميعًا إلى نفس المستوى من القدرة على تجريد المفاهيم.. وإستعمالها.. لو أجلنا البصر حولنا لوجدنا الناس يختلفون في قدرتهم على تجريد المفاهيم وإستعمالها وفهمها. فبيننا العلماء الذين يبحثون في أكثر الأمور تجريدًا كالطاقة والقوة والجاذبية – وهي أشياء لا نضع أيدينا عليها مباشرة. إن هؤلاء العلماء يبتكرون كل يوم طريقة لدراسة تلك المسائل النظرية بدقة وفي إختصار يصل إلى حد الغموض. وبيننا أناس لا يزالون يقدرون

المسافات بين البلدان بالقروش التي يدفعونها في القطار حتى يصلوا إليها. وبين الطرفين نجد تفاوتًا في درجات القدرة على التعامل مع المفاهيم.

لقد وجد علماء النفس علاقة وطيدة بين القدرة على تجريد المفاهيم والتعامل بها وبين ما يعرفونه بالذكاء. بل لقد أختلط الأمر على بعضهم حتى أصبحوا يرون الإثنين كلمتين مترادفتين لمعنى واحد هو النجاح في التعامل مع الواقع. ويعود هذا الخلط إلى تعريف العلماء الذكاء وإلى طرق قياسهم له. فالذكاء عند بعض علماء النفس هو النجاح في القيام بعمل ما. لذلك يعمدون إلى قياسه بإبتكار الأعمال المتدرجة في الصعوبة ليروا مدى نجاح الشخص في أدائها. ولما كان نجاح الشخص في أداء أسئلة الذكاء سبيلًا للتنبؤ بمدى نجاحه في حياته العلمية، أرتبط الذكاء بالقدرة على تجريد المفاهيم وإستعمالها حيث أنها سبيل الشخص إلى التعرف على واقعه ومعالجته عمليًا. ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا الأمر من جانبه العلمي، ولكنا سنجهد في تبسيطه حتى لا يلتبس علينا الذكاء والقدرة على تجريد المفاهيم.

إذا لاحظنا رجل الزراعة في حقل يعمل، لوجدنا أنه يباشر عمله دون الإلتزام بقوانين عملية واضحة، ويبتكر أدواته دون الرجوع إلى نظريات الهندسة – ورغم ذلك فهو ناجح كأحسن ما يكون النجاح.

هذا المزارع في واقع الأمر لا يتعامل مع المجردات في صورها المركبة العليا – إنه يفكر بواسطة مفاهيم أكثر بساطة تناسب طبيعة عمله. ولو أتينا برجل درس الزراعة في المعامل وأتقن فنونها في الكتب وتعامل مع المفاهيم المجردة التي درسها في الجامعة – لو أتينا به ليزرع ربما عجز عن أن يلحق بزميله الذي ولد بالحقول. فهو أميل إلى تناول الأمور بدقة العالم في الوقت الذي تحل فيه تلك المشاكل عن طريق مباشر بسيط يعلمه الفلاح بالخبرة. إن بعض ميادين النشاط تتطلب مستوى عاليًا من القدرة على التجريد حتى ينجح الشخص، بينما في بعضها الآخر تعوقه القدرة على التجريد عن الوصول إلى النجاح فيه.

لذلك يفضل أن ننظر إلى التفكير بإعتباره الأسلوب الملائم للتعامل مع واقع معين، بينما الذكاء هو نتاج أساليب التفكير المختلفة في نشاطها في هذا الواقع. ولا أدل على هذا مما أثبتته البحوث من عدم إختلاف ذكاء سكان الغابات الذين يعيشون بطرق بدائية عن سكان المدن الذين تتعقد وسائل العيش في بيئتهم. فبعض البيئات وبعض الثقافات تشجع الأفراد على أساليب معينة للعيش. فلنتصور رجلًا بدائيًا قضى حياته في الغابة وأتقن فنون العيش فيها – لنتصوره في حجرة وثيرة الفراش معدة على أحدث طراز.. ماذا سيكون سلوكه؟ إنه سيترك الفراش لينام على البساط الأنه أشبه بجلد

الحيوان الذي أعتاد النوم عليه. بل سنراه يشرب من إناء الزهر – ولا يقرب الصنبور الذي لم يعرف له مثيلًا في غابته. إن هذا البدائي لا يقل عن أبن المدينة في قدرته على تجريد المفاهيم. فالبساط وجلد الحيوان على شبه بعضهما فجمعهما في مفهوم وأستعمله إستعمالًا سليمًا. إن ما يفرق بينه وبين المدني هو خبرته بالجديد...

لقد عودتنا ثقافتنا وحضارتنا على التعامل مع الرموز بصورة أوضح. فيكفينا أن نقرأ عن أبعاد صاروخ هائل يعبر الفضاء حتى نتصوره. أما رجل الصحراء الذي لا يعرف القراءة فلا يكفيه أن يرى صورة هذا الصاروخ حتى يدركه ويتصوره.. إنه لم يخبر الصور وما تعنيه من تصغير للأشياء، فأنا له أن يدرك الأبعاد التي تجرد واقع الصاروخ فتجعله مجموعة من الأرقام.

لذلك يمكن القول بأننا قد نختلف في نوع المفاهيم والمجردات التي نتعامل بها مع بيئتنا دون أن نختلف في قدرتنا على التفكير السليم. فمنا من طبعته بيئته بطابع التجريد المفرط، ومنا من أضطرته بيئته إلى التعامل بالمفاهيم المادية الملموسة.. وكلا النوعين من الناس ناجح في حياته لا يقل عن الأخر ذكاء... أما إذا كانت طبيعة ثقافتنا وظروف معيشتنا تحتاج منا إلى نوع معين من التفكير ولا يفيد معها إلا هذا النوع – إذا كان الأمر كذلك ووجدنا بعضنا

غير مستطيع للتجاوب مع متطلباته – فهنا نتكلم عن إختلافات التفكير.

من تلك الفكرة نرسم الإطار العام الذي نختلف في تفكيرنا فيه. فثقافتنا المدنية – وحتى الريفية بعد إنتشار التعليم – تطلب منا أن نترك الماديات والملموسات جانبًا لنتعامل مع ما وراء الأشياء من أفكار. وقد أصبح من تراث تفكيرنا أن نقرأ ونكتب ونرمز إلى الأشياء دون عرضها عرضًا ماديًا. فيكفي أن نضع أمام أطفالنا كتابًا مصورًا يعرض حياة الحيوانات حتى يصبحوا على دراسية بعالم الحيوان. كما أننا نحن البالغين نثور ونرضى.. نحارب ونسالم لمجرد أن ديمقراطيتنا قد مست. ولا تعدوا أن تكون الديمقراطية كلمة نقرأها في الصحف. فلو وجدنا من بيننا من لا يعرف معنى الديمقراطية – بصرف النظر عن إهتمامه بها أو فهمه لأصولها – وإذا وجدنا من بيننا طفلًا لا يفهم أن صورة الحصان تطابق الحصان الذي يراه في الطريق. فهنا يبدأ الحديث عن إختلافات التفكير. أما إذا دققنا في أحوال التفكير عند الأسوياء دون المرضى، فإننا لا بد واجدين نوعًا من التعامل مع المجردات والمفاهيم مع إختلاف قدره...

(ب) اختلاف تفكيرنا من حيث الاهتمام بالشكل والمضمون:

يحكى في القصص الديني أن إمرأة فرعون أرادت أن تبرهن لزوجها الخائف من الطفل «موسى» أن هذا الطفل غر لا يفرق بين الصالح والضار. فأتت بالطفل وقدمت إليه بلحًا أحمر وجمرًا متقدًا. ومد الطفل يده إلى جمر ووضعه في فمه فأحرقه. وهنا رضى فرعون عن رغبة زوجته في تربية هذا الطفل، الذي تنبأ له العرافون بإنتهاء حكمه على يديه.

في هذه القصة نجد أن موسى أدرك ما أمامه على أنه شيء أحمر، ولم يفرق بين ما يؤكل وما لا يؤكل. لقد أخذته حمرة الحجر ولما كان عديم الخبرة بما يفرق البلح الأحمر عن الجمر الأحمر لم يجد مانعًا في إبتلاع النار. لقد تعامل الطفل هنا مع شكل الشيء لعجزه عن إدراك مضمونه.

ولكن هل يسلك البالغ نفس المسلك في كبره.. ربما لن نجد من بيننا من يقوم بإبتلاع الجمر، ولكننا نجد أناسًا يؤخذون بشكل الأشياء دون مضمونها. كما أننا نجد أناسًا يتركون شكل الأشياء جانبًا ويهتمون بضمونها. ويصعب علينا أن نمثل لكل نوع بمثال لأننا جميعًا ما دمنا ناجحين سليمي العقل فلا بد وأن نتعامل مع شكل ومضمون الأشياء رغم ميل بعضنا إلى أحدهما بصورة أكثر وضوحًا. ولكن إذا تجاوزنا هذه الحقيقة قليلًا فسنتبين إختلافًا في سلوكنا مع

الأشياء. فبعض الناس لا يستسيغون الشعر الرمزي أو الفن التجريدي لأن الشكل الفني لهذا الإنتاج بعيد إلى حد كبير عن أي مضمون يفهمونه. وبعض الناس يفضلون الإتجاهات السيريالية في الفن لما تحتاجه من تجاوز لشكلها وتفهم مضمونات جديدة يميلون إليها.

ولا يقتصر الفارق بين النوعين على هذا المثال المتعالي عن واقع حياتنا العادية.. فمنا من يرى قيمة العطاء في قدره، وبعضنا يرى العطاء شعورًا إنسانيًا لا يقيم بمادته. وهناك أناس أميل إلى تفهم العالم من وجهة النظر العلمية، بينما أناس آخرون يجدون في المثل فيما تتجاوز الواقع المادي الملموس. وليس الإختلاف بين النوعين إختلافًا في أفضلية نوع على آخر، ولكنه إختلاف في أسلوب التعامل مع البيئة. فالشخص الذي يهتم بشكل الشيء ذو علاقة عملية سطحية مباشرة بالواقع. أما الشخص الذي لا يغير الشكل الإهتمام الذي يصرفه تجاه المضمون فهو نظري أكثر عمقًا يرتبط بواقعة من خلال المجردات والمعنويات. وكلا النوعين على صلة سليمة بالواقع، يتوافق مع بيئته رغم إختلاف الأسلوب.

لقد أستغل علماء النفس فكرة بسيطة للتفريق بين هذين النمطين من المفكرين. وتنحصر الفكرة في عرض عدد من الأشياء غير ذات الصلة ببعضها على الأشخاص. ثم يطلب منهم أن يصنفوا تلك الأشياء حسب مبدأ معين ليروا ما المبدأ الذي يفضله كل منهم.

وقد وجدوا أن بعض الأشخاص يصنفون الأشياء حسب تشابهها في شكلها أو حجمها أو لونها بينما البعض الآخر يصنفونها حسب فائدتها أو إستعمالها. فمن الأشخاص من يضع الكتاب مع الصندوق مع علبة الكبريت لأنها جميعًا مكعبة ويضع السيجارة والقلم وخرطوم الماء معًا لأنها مستطيلة ومستديرة القطر ويضع الغليون مع المسطرة لإرتباطهما في المادة الخشبية التي صنعت منها ويجعل من الطباشير والورق الأبيض مجموعة حسب اللون ويعتبر إطار السيارة وقطعة الفحم متشابهتين ما دام لونهما أسود. ومن الأشخاص الذي يضع القلم والطباشير معًا لأننا نكتب بهما ويضع الخرطوم وإطار السيارة معًا لأنهما من المطاط.. وهكذا. إن مثل هذه التجارب تكشف لنا عن أسلوب إدراك وإستخلاص الشخص للمفاهيم.. وميه إلى إدراك الأشياء من حيث شكلها أو مضمونها ، من حيث استعمالها أو مكوناتها .. وكي نوضح ذلك نعود إلى مثالنا الخاص بالحجرة وما تحتويه. لنفرض أنني بدأت بمضمون الأشياء التي بها. إن أول ما سأقوم به هو وصف كل شيء في الحجرة فأجد صوانًا للكتب، ثم صوانًا أضع به بعض التحف الصغيرة ثم أجد صورة زيتية وأخرى فوتوغرافية وهكذا أجد الحجرة مشتمله على **40** شيئًا كل منها يحمل مضونًا مختلفًا، أو ربما حمل عدد قليل منها نفس المضمون كالكراسي الأربعة التي بها. الواقع أنني لو لم أتخلى عن التصنيف

حسب المضمون فإن تصنيفى سيظل ناقصًا ومعقدًا وغير دقيق. ثم لنفرض أنتي بدأت بشكل الأشياء دون مضمونها. في هذه الحالة سأجدني أضع كل ماهو صغير الحجم معًا كالتحف وزجاجة المياه الغازية التي أشربها وعلبة التبغ التي أدخنها معًا، وأضع ذوات الحجم المتوسط كالكتب ولمبة المكتب والخف الذي ألبسه معًا، وهكذا. وهنا أيضًا يبقى تصنيفنا غريبًا ومعقدًا وغير سليم. ماذا إذن الحل؟ الواقع أنني لو تركت أي الطريقتين تتقدم لوجدت نفسي إذا بدأت بالمضمون أو بالشكل سأصل في النهاية إلى تصنيف يضمهما معًا في إطار منسجم. فبعد فترة سأكتشف فكرة الإستعمال لتلك الأشياء «مضمون» لأضع أحجامًا مختلفة مع أشكال مختلفة في وحدة واحدة.. أو أكتشف فكرة الوزن الخاص بالأشياء «شكل» لأضع أحجامًا مختلفة تختلف في إستعمالها لأصل إلى تلخيص آخر لما تحتويه الحجرة. ثم أقوم بإختصار آخر أكثر براعية حيث أصنف الأشياء حسب المواد التي صنعت منها فأجعل كل ما هو خشبي معًا وكل ما هو نسيج معًا وكل ما هو زجاجي معًا بحسب العناصر فأجدني، بإزاء أشياء تتفق في كثير من حيث وزنها وإستعمالها وحجمها.. ويصبح مبدأ المادة دقيقًا ومسببًا لعملية التصنيف ويختصر لي الأشياء التي بالحجرة إلى حد كبير، ويمنع عنها اللبس والخلط والقابلية للأمتزاج. من هنا نجد أن المفاهيم التي نخلقها

تضـم الشـكل وللضـمون بقـدر براعتنـا فـي التـأدي مـن أحـدها إلـى الآخـر، فإذا قـدر لنـا أن نكـون بـارعين إسـتطعنا أن نصـل إلـى علاقـة أبسط وأدق وأسلم بواقعنا.

لقـد أوضـحنا مـن قبـل أن الإنسـان إنمـا يفكـر بالمفـاهيم، وأن المفاهيم تنبني على الشكل والمضمون معًا لا على أحدهما. وإلا ما إستقامت علاقتنا بواقعنا. فلما تكلمنا على ميل البعض إلى الشكل دون المضـمون أو العكـس نبهنـا إلـى أن التفكيـر لا يـتم علـى أسـاس هذا الميل نقيًا. بل إن الإنسان العاقل الذي لا يشوب تفكيره مرض لابد وأن يتعامل مع كل من الشكل والمضمون معًا مهما كان تفضيله أو ميله. فالشكل وحده يضللنا، كما أن المضـمون وحـده لا يوضـح لنا الأمور.. لذلك نرى أن من يبدأ بمفهوم أساسه الشكل سيصل إلى المضـمون، كما أن المفاهيم القائمة على المضـمون لا تقود التفكير جتي تعود إلى شكل الواقع فتختبره.

مـن هـذا العـرض المبسـط يمكننـا تقـدير مـا يفيـده الإنسـان مـن تخلصه من سيطرة الواقع الملموسن للأشياء وتقدمه نحو فهم كنة الأمور. هذا التطور هو تطور إلى مفاهيم أكثر عمقًا وشمولًا ودقة.. مفـاهيم تنبـع مـن إدراك واضـح للأشـكال المختلفـة التـي يظهـر بهـا واقعنـا وتنتهي إلى تلخيص دقيق لهذا الواقع. ولا شك أن الوصول إلى هذا التلخيص الدقيق الشامل يحتاج من وقت إلى آخر لمراجعة

وإعادة تقييمه. تلك هي الخطوة التي نقوم بها دون وعي منا، يقوم بها العالم في معمله حسب خطط متفق عليها.. إننا دائموا التذبذب بين أشكال واقعنا ومضامينه. فمن الشكل ندرك المضمون ومن المضمون نعود إلى الشكل كي نعرف حدود ما وصلنا إليه من فهم له.

(جـ) إختلاف القدرة على سهولة التنقل بين شكل ومضمون واقعنا:

«الليونة والجمود في التفكير»

فيما سبق تعرضنا لإختلافات الأفراد من حيث ميلهم إلى التعامل مع شكل بيئتهم أو مثيراتها ومع مضمون تلك البيئة أو تلك المثيرات. وقلنا أن الإنسان السوي التفكير لا يستغنى في تفكيره، بل يمتنع عليه حسن التصرف إذا تعامل مع وجه واحد من أوجه واقعة. ووصلنا إلى أن الأمر لا يعدوا أن يكون تغليبًا للشكل على المضمون أو العكس – أو أن يكون تفضيلًا لتناول الأمور في بدايتها من حيث شكلها أو مضمونها. ثم أوضحنا أن تفكيرنا – إذا سلم من المرض يتذبذب بإستمرار بين شكل الشيء ومضمونه حتى يصحح نفسه ويلم بالأمر من جانبيه معًا. تلك النقطة الأخيرة تعد سببًا ثالثًا من أسباب إختلافنا في التفكير. فمنا من يجد صعوبة في هذا التذبذب فيأخذ تفكيره طابعًا خاصًا يتسم بالجمود، ومنا من يسهل

عليه الأمر فنراه أكثر ليونة في أفكاره يعدل فيها بما يتفق مع تغير الأحداث.

وكي نضرب مثالًا – يتسم بالطرافة كما يتصف بعدم قصد كاتبه – على جمود السلوك وتحيزه لشكل الأمور دون مضمونها تقتبس من إبراهيم المازني وصفًا لإمرأة في كتابه إبراهيم الكاتب، يقول المازني «... ومقياس الصحة عندها مقدار ما يصيبه المرء من الطعام، فأصح الناس من يلتهمه إلتهامًا ويأتي على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غدًا. بل قيمة المرء رهن بذلك، فأحق الناس بالإكبار الأكول البطين. أما من يأكل بقدر أو لا يأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جلله الشيب وقوست قناته السنون والحادثات».

إن سخرية الكاتب في هذا المثال تنبع من تضخيمه لجمود تفكير المرأة. فجمود التفكير يؤدي إلى أحكام وتصرفات تثير السخرية والضحك كلما زادت ولم تعد تجاري المواقف بعد تغيرها.

والواقع أننا نتنوع ونتفاوت في جمود تفكيرنا. ولنحاول أن تتصور موقفًا يتعرض له عدد من الناس ثم تابع ما يطرأ على أحكامهم. مجموعة من الأفراد يشاهدون رجلًا قوي البنيان يعتدي على آخر هزيل ضعيف. في البداية سيشعر الجميع بالعطف على الضعيف وبظلم القوي. ثم يسمعون من يقول بأن المعتدى عليه قد

حاول سرقة المعتدي فإذا ببعضهم يغير من رأيه ويفقد عطفه على الضعيف ويظل الباقون عند رأيهم. ثم يعلمون أن المعتدى عليه لص معتاد، وشيئًا فشيئًا يجدون أن هذا الهزيل قد قام بشرور كثيرة أضرت بالناس. ومع تطور الموقف يغير الناس من حكمهم شيئًا فشيئًا كذلك، ورغم ذلك يبقى البعض مصرًا على أن إعتداء القوي على الضعيف شيء لا يستحب مهما كانت الدوافع.

هذا الموقف الإفتراضي يبين لنا أن هناك أناس يتمسكون بفكرة ثابتة مهما طرأ من تغير على المجال، بينما نجد آخرين يغيرون من تفكيرهم كلما جد على المجال جديد. بعبارة ثانية، عندما يواجه الناس موقفًا فإنهم يحكمون على شكله أولًا لأنه الأمر الوحيد الظاهر. ومع خبرتهم المتجددة بالموقف ووضوح مضمونه يتحولون في أحكامهم حسب ما يجد. ولكننا لا نعدم أن نجد من يجمد منه التفكير على حكمه الأول ولا يستطيع أن يقدر الجديد الذي طرأ على الأمر تقديرًا مختلفًا.

وقام علماء النفس بتجربة بسيطة لقياس جمود التفكير. فقد عرضوا على شاشة سينما شكل قط.. ثم أخذوا يغيرون بعض تفاصيله بالتدريج حتى تحولت صورة القط إلى صورة كلب على خطوات متدرجة. قاموا بتلك العملية وعرضوها على مجموعات من الأفراد وطلبوا منهم أن بشيروا إلى الصورة التي يختفي فيها شكل

القط ويبدأ ظهور الكلب. فتبينوا أن هناك أناسًا غيروا من فكرهم بعد ظهور تحولات بسيطة على صورة القط، بينما ظل عدد منهم متمسكًا بصورة القط إلى مرحلة متأخرة حتى أمكنهم إدراك ظهور صورة الكلب.

ولا شك أن سهولة التحول عن مفهوم إلى آخر، وسهولة الإنتقال من شكل الشيء إلى مضمونه وبالعكس أمر يفيد الإنسان في تعامله مع البيئة. فالبيئة متغيرة وتحتاج منا أن نجاريها في تغيرها. كما أن سهولة التردد بين شكل الشيء ومضمونه تزيد من إدراكنا لكثير من التفاصيل وتعمق فهمنا لقيمة الشيء في نفس الوقت. ورغم أننا قد نجد أن هناك من يتميز بجمود التفكير مع إحتفاظه بمستوى عال من القدرة على التعامل مع البيئة – إلا أننا نميل إلى إعتبار الأمر مسألة نسبية. فجمود التفكير أو ليونته أمر يتوقف على طبيعة البيئة ومتطلباتها. فبعض الظروف يضللنا في الحكم عليها سهولة تحول تفكيرنا فيها. بينما بعض الظروف الأخرى تفيدها هذه السهولة وتلك الليونة في الأفكار.

الوجدان والتفكير

لم نتعرض حتى هذه اللحظة إلى تناول جانب الإنفعال والوجدان في التفكير، رغم أنه أكثر ما يلفت النظر. وقد جاء تأجيل التعرض لذلك الجانب في مصلحتنا، لأنه سيعرض لنا خاصية عامة في التفكير الإنساني السوي ربما أوضحت لنا بصورة أضخم الفرق بين السواء والمرض في نطاق أعم. بل إن التعرض لذلك الجانب يفيدنا في تمييز أنواع من المرض النفسي تختلف فيما بينها بصورة لا تقل وضوحًا عن إختلاف المريض عن السليم. ومن جانب ثالث يفيدنا التعرض لهذا الجانب إلى أن ندلف إلى عالم المرض العقلي وإضطراب التفكير فيه.

لقد تكلمنا عن إنشاء المفاهيم والتعامل مع شكل الأمور ومضمونها والميل إلى الشكل أو المضمون في التعامل ثم القابلية للإنتقال من الشكل إلى المضمون في حركة مستمرة تؤدي إلى تعامل أوفق مع العالم المادي الذي نعيش فيه. ولكن ما هو المفهوم، ذلك الطلسم الذي يفتح للإنسان سر عالمه والذي ينشأ لديه وينمو دون أن يدري إلا بنتائجه؟. لننظر إلى ذلك المقعد الذي بحجرتنا والذي ألفنا الجلوس عليه ساعات من النهار نقلب في شئون حياتنا ونمارس في جلستنا عليه ضروبًا من الإستجمام والقلق، التفكير والتأمل،

الإسترخاء والتوتر. لننظر إلى شكل هذا المقعد متأملين فيه. إن له شكلًا وله مضمونًا ولكننا نميز بين شكله ومضمونه في علاقتنا به. بل ربما إذا سألنا البعض ماذا في هذا المقعد يجعلك تقدره ذلك التقدير، ربما ما إستطعنا الإجابة: أشكله أم.. مضمونه؟. إن شكله لا يختلف كثيرًا عن غيره من المقاعد، بل هناك عدد من المقاعد المشابهة له تمامًا في نفس الحجرة. مضمونه إذن.. حتى مضمونه لا يختلف عن غيره من المقاعد فكلها صالح للجلوس ويقوم بنفس الوظيفة. إذن ماذا في ذلك المقعد بالذات؟ الحقيقة أن ذلك المقعد له لدينا قيمة تعلو على شكله ومضمونه، قيمة تمزج الشكل بالمضمون في وحدة قوية وتربطنا به رباطًا وجدانيًا خاصًا يجعل له تلك المكانة بنفوسنا. إنه أشبه بتلك الزهرة المحنطة في كتاب محب أهدته إياها حبيبته ذات يوم منذ عشر سنوات. إنه ليس بمقعد. إنه رمز وذكرى، هو جزء منا وقطعة من كياننا، بعبارة أخرى إن لنا به علاقة حب.

والوقع أننا في تكوين علاقتنا بما حولنا، وفي خلال عملية إنشاء المفاهيم التي نتعامل بها مع تلك الموجودات، لا بد وأن نضفي عليها جانبًا غير عقلي نسميه بالجانب الوجداني. ويكفي أن نعود إلى نفس المثال لنجد هناك مقاعد نكرهها وأخرى لا تتميز بصفة خاصة حتى ندرك أن لنا بما حولنا وشائج من حب وكره وما

بينهما. نحن إذن نفكر وننفعل أيضًا، ويؤدى إنفعالنا إلى مزج وتلوين التفكير بصبغته الشخصية الخاصة بنا.

من هذا نجد أن تفكيرنا ليس قاصرًا على التعامل العقلي والذهني مع العالم، بل نحن نرتبط بهذا العالم عقليًا ووجدانيًا معًا. والتعرض لمشكلة الوجدان وعلاقته بالتفكير يضعنا أمام مشكلة كثر النقاش حولها. هل الشخص الوجداني العاطفي أكثر خطأ في تفكيره من آخر ينظر للأمور نظرة باردة ذهنية مجردة؟ بعبارة ثانية، هل إذا تدخل الوجدان في تفكيرنا وغزت الإنفعالات نشاطنا العقلي مرض منا التفكير؟ هذه المشكلة نواجهها في أمور معايشنا وظروف حياتنا بإستمرار. وقد صاغها علماء النفس بصورة أدق فأصبحت: هل يمكن أن نجعل العلاقة بين سلامة التفكير ومرضه علاقة طردية مع قدر الوجدان الناشط في إدراكنا لعالمنا؟

في الحقيقة أن هذا الرأي على بساطته وواقعيته ليس صحيحًا. وربما يعود الخطأ في ذلك الرأى إلى عدم ملاحظتنا الدقيقة للموقف. حقًا إن المريض العقلي يتميز بإنحراف المزاج وغرابة الإنفعال وشذوذ الوجدان، ولكن ذلك ليس كل الأمر. فالإنحراف والغرابة والشذوذ تدل على أن خللًا قد أصاب التفكير، ومعنى ذلك أن إعتدال المزاج وألفة الإنفصال وسواء الوجدان تدل على صحة

التفكير. إن غياب الوجدان ليس شرطًا لسلامة التفكير. بل وجود الوجدان في صورته المغربة هو ما نقصد بفاعليته في مرض التفكير؟

لذلك يمكننا أن نقترب من حل هذه المشكلة فنقول إن إضطراب التفكير ليس على علاقة طردية بشدة تدخل الوجدان في عملياته. بل تدل الدراسات على أن مرض التفكير هو المسئول عن إندفاع وجدانات غريبة ومشاعر غير مألوفة إلى علاقة الشخص بواقعه. بعبارة ثانية ليس الإنفعال هو المسئول عن فساد التفكير، لأن الإنفعالات السوية تزيد التفكير إستقامة ولكن فساد التفكير هو الذي يسمح لإنفعالات غريبة وشاذة بأن تندفع متلونة بلونها الشاذ والواقع أن شرح، هذه النقطة يصعب إلى حد كبير، لذلك سنكتفي بالتساؤل: من أين لنا بإنفعالات ووجدانات شاذة؟ وكيف يتسنى للتفكير السوي أن يمنح تلك الوجدانات المنحرفة من الظهور؟ وكيف ينبع التفكير السوي لدى الإنسان؟

تطور تفكيرنا:

لا يولد الوليد مزودًا بقدرة على التفكير تنفتح حسب قانون فسيولوجي أو بيولوجي محتم، ولا توجد وجدانات طبيعية تنتظر ميقاتًا لتندمج مع التفكير فتجعله سويًا رحبًا منطلقًا. إن تطور الإنسان يدل على أنه يخضع لعمليات تهذيب وصقل كثيرة تغير فيه ليأخذ طابعه الإنساني. والدليل على ذلك أن الإنسان عندما يصاب

بعلة نفسية يرتد إلى مراحل من النمو مبكرة تصبغ تفكيره بطابع تلك المراحل، فيبدو وكأنه يعرض لنا ما مر بنا قديمًا وخضع للتهذيب والصقل على مر الأيام.

لنستعرض في لمحة سريعة ما مر بنا في طفولتنا من مشاكل وما توصلنا إليه من حلول لتلك المشاكل، لعلنا نهتدي إلى تلك الصلة الوثيقة بين سواء التفكير وبين الوجدان.

تفكير الطفل في سنته الأولى:

لو نظرنا إلى وليد جديد. لوجدناه نائمًا أغلب وقته لا يفيق إلا إذا أزعجته حاجة. وأكثر تلك الحاجات أهمية بالنسبة إليه هي حاجته إلى الطعام. ففي فترات إطعامه ومن خلال فمه نجد هذا الوليد وقد أفاق من نومه وتخلص من عزلته ليتصل بعالمه. عالم ضيق ينحصر في ثدي أمه وذراعيها. فعندما تنشط لديه دفعات الجوع تطلب الشبع، نكون منطقة الفم منطقة متوترة حساسة. وشيئًا فشيئًا، ومع نماء قدرته على الإحساس بما حوله يرتبط هذا الجسم المستدير الذي يأتيه بالراحة، يرتبط بإحساس بالشبع والرضى. ولكنه أحيانًا ما يطلبه نبعًا لا ينضب، فيجده ليس طوع رغبته التي لا تعرف التأجيل.

وأنى لتلك الرغبة الوحيدة أن تعرف التأجيل وهي حيوية لهذا الكائن الضعيف العاجز عن التصرف. وتمتلئ نفس ذلك الوليد

بالألم والخوف والغيظ دون تعقل ولا إعتدال. فإذا ما أمسك بشدي أمه، نازعته نفسه إلى إلتهامه حتى يبقي عليه دائمًا في فمه فيأمن شر تأخر إرضاعه.

في تلك اللحظات يحتك الوليد ببشائر قواعد الواقع.. ألا وهو التهديد بالحرمان.. فمحاولات الطفل أن يبتلع الشدي لا تجديه نفعًا.. فإبتلاعه يعني في ذهنه إختفاء يدوم وتدميرًا يشمل مصدر راحته. كما أن إستحالة الأمر فعلًا تجعله في حاجة إلى تعديل رغبته تلك. ففي تلك الشهور الأولى من العمر لا يدرك الطفل تناقضه إزاء مصدر إشباعه: يريده ليبقى دائمًا، وإذا أبتلعه أختفي تمامًا. ولما كانت كل من الرغبتين.. تفصلهما فترة زمنية أو تعزلهما حالتين وجدانيتين لا يعيهما عقل الطفل في آن واحد، نجد أن حل هذا الإشكال يأتي بالتنازل عن واحدة من الرغبتين، أو بالإبقاء على ثقته في مصدر الإشباع أو سحب ثقته من عالمه.

ويتدخل أكثر من عامل ليحدد للطفل أي الرغبتين يبقى وأيهما يرفض. ومن تلك العوامل ما يصاحب الرضاعة من إشباع لغيرها من الرغبات فإحساس الألم عند الجوع. والراحة عند الشبع يجعل الطفل يربط سريعًا بين الرضاعة والمحبة. وليس بالغريب علينا أن نجد الرضيع بعد شبعه يميل إلى اللعب بثدي أمه، تلاطفه ويبتسم لها ويشعر بدفء الحياة حوله. ويقف الواقع أمامه أيضًا في تلك

اللحظات حتى يعكر عليه صفو لذة اللعب والحب والشبع. فلكل أمر نهايته بالنسبة لنا، أما بالنسبة للرضيع فإن عقله لا يقبل إلا ما يرضيه. ويدرك الطفل أن وراء الثدي أمًا، تبعد فتختفي وتقترب فتظهر ويعرف غير اللبن طعامًا له. ويدفعه الإكتشاف إلى التنازل والفصل بين رغبته في الشبع ورغبته في الحب. فعليه والأمر كذلك أن يتحمل مشاق ألم الجوع فترة حتى يحصل على المحبة. وهنا نستطيع أن نلمح معالم المشكلة التي يمر بها الطفل. فإذا كان الإشباع مصحوبًا بالحب، فضل الطفل تحمل مشاق الجوع حتى لا يغضب أمه فيفتقد حبها إذا أطعمته. أما إذا كان الأمر إطعامًا لا تصاحبه مشاعر الحنان والحب لم يجد الطفل في رغبته التأجيل جدوى وفضل تخفيف آلام الجوع وحده لأنه الوحيد.

إن هذا الموقف الذي يخبره الطفل إزاء مشكلتي الإشباع والحب هو موقف يبين لنا التناقض الأول في حياته. فرغبته في الإشباع السريع قد تؤدي به إلى الحرمان، ورغبته في الحب قد تؤدي به إلى فقدان الحب. ولا يجد الطفل أمام هذا الموقف حلًا إلا الخضوع لمبادئ الواقع فيلقي بأحد الرغبتين بعيدًا ويبقي على الأخرى قريبة من ذاته لينهي هذا التناقض الذي يمزق نفسه الصغيرة. ولكن أين تذهب تلك الرغبة التي أنكرها في نفسه وأبعدها عنه؟ إنها جزء من ذاته وأمر لا يتخلص منه بمجرد إنكاره. إنها ذاته. أو بعض

منها – تنكر لها لتعارضها مع منطق الواقع الذي أكتسبه. لذلك يبني الطفل – حول رغبته تلك سورًا من النسيان – وكأنها لم تكن منه وفيه يومًا – فيبعد بينها وبين الظهور في وعيه ليتعامل مع واقعه برغبة واحدة مقبولة من المجتمع. وبمعنى آخر أنه يكبت تلك الرغبة فيجعلها بعيدة عن الشعور «لا شعورية» ويجعل المنطق يسود شعوره وبذلك يخفي عن الأنظار وجدانًا جامحًا.. ولو إلى حين.

تفكير الطفل في سنته الثانية:

وبعد أن ينتهي الطفل من حل تناقضه الأول بكبت رغبة من الرغبتين المتضادتين يصادف تناقضًا آخر جديدًا عليه. لقد بدأ يسير ويكتشف عالمًا أكثر ثراء بالأشياء وأوفر في مصادر إثارته من مجرد سريره وذراعي أمه. ويشعر الطفل أمام هذا العالم يواكير ذاته. إنه قادر الآن على الوصول إلى هذا الشيء الذي ظل ينظر إليه من سريره دون أن يستطيع الحركة...كما أصبحت المسافات التي تفصله عما حوله قابلة للإجتياز.. كل هذا يستطيع أن يحققه بنفسه دون الحاجة إلى أمه. ولكنه ينتبه إلى أن أمه تتدخل في أمر لم يعلم قبل بأهميته، ألا وهو عادات التبول والتبرز. لقد كان فيما سبق لا يراعي في مخارجه حرجًا. ولكن أمه تلح عليه الآن أن يفعل تلك الأمور في أوقات وأماكن معينة. ويشعر الطفل إزاء تلك التعليمات الجديدة بتهديد لذاتيته الناشئة. وينتبه بعد مدة إلى أهمية تبوله وتبرزه

في إرضاء وإغضاب أمه. وتمتزج لديه فكرة السيطرة على مخارجه برغبته في توكيد ذاته.

ومن تلك التعليمات وما في نفسه من رغبة في تأكيد ذاتيته يقف الطفل أمام تناقضه الثاني في حياته. إذا أستسلم لتعليمات أمه فإنه بذلك يكتسب حبها ويفقد ذاتيته. فإذا عارضها في أوامرها فقد حبها وأكد ذاته فيلبي رغباتها ساعة ويعترض عليها ساعة. يغضبها إذا أغضبته بأن يبول في ملابسه، ويهديها برازه في المكان الذي حددته له – إذا أحبها وأحبته. ويتولد لدى الطفل إزاء هذا الموقف العصيب – بالنسبة له – مشاعر جديدة لجدتها. إنه قادر الآن على عقاب أمه والإعتداء على راحتها وقادر أيضًا على مكافأتها وإظهار مودته. ولكن كل تلك الشاعر تتعارض مع واقعه فهو ليس بعد قادرًا على العقاب والإثابة قدر ما هو هدف للعقاب والإثابة.

فإثابته لأمه إثابة لنفسه، وعقابه لها عقابًا لنفسه لأنها تقابل الشيء بمثله. ويعمد الطفل في تلك الظروف إلى إهمال رغبة من تلك الرغبتين. فإذا كان عقابه لأمه بعصيانها يفقده الحب، مال إلى إنكار تلك الرغبة في ذاته بكبتها. وإذا كانت إثابته لأمه بإطاعتها لا يأتيه بالحب، كبتها وأبقى العدوان يدافع به عن كيانه، وهكذا يضاف إلى الوجدان الذي سبق كبته ما يزيده ثراء وقوة.

بذلك تسقط رغبة أخرى إلى لا شعوره ينساها حتى لا تؤرقه طالبة الإشباع وتضاف تلك الرغبة إلى أختها التي نسيت من قبل لينالا نفس المصير.. النسيان والإنكار. ويزداد الغريب قوة إذ ينمو كلما نما الطفل. فذلك الجزء من الذات الذي سعي الطفل إلى التخلي عنه بكبته، بمثابة الغريب لذاته العاقلة الإجتماعية. فالغريب يقف متحفزًا للظهور إذا ما وهنت أمامه الرقابة.

تفكير الطفل في سنته الثالثة «عقدة أو ديب»

وينتهي من مشكلته الثانية ليجد نفسه أمام تناقض جديد. فقد اخذ أهله يميزون بين ذكورته وأنوثة أخته. وتنبه هو أيضًا إلى ما يفرق بين أمه وأبيه. وأصبح لزامًا عليه أن يقوم بدور خاص يختلف عن دور الجنس الآخر. فللرجال عادات وسلوك وللنساء طباع وميول. ويدفعه المجتمع – ونعني هنا الأسرة – إلى إكتساب تلك العادات والسلوك التي تتفق مع جنسه، وتمنعه من إتباع ما يقوم به الجنس الآخر.

ولا يجد الطفل إزاء هذا الموقف الجديد المبهر له إلا أن يقلد أحد والديه يكتسب منه أساليب عيش جنسه. فالذكر يقلد أباه في سيطرته وخشونته وقدرته على التملك. والأنتي تتخذ من أمها هاديًا لها في دنيا الأنوثة. ونجد الطفل في تلك السن ميالًا إلى إكتشاف ما وراء ذلك الفصل بين عالم الذكورة والأنوثة من أسباب. ولن يعدم

الطفل مصدرًا للمعلومات التي يريدها. فقد يرى أن الذكر تميز عن الأنثى بعضو تناسلي هو شارة الذكورة أو قد يلتقط بعض المعلومات من يكبرنه فيصوغها خياله الصغير ليصل إلى تلك الحقيقة.

ولا ينتهي الأمر لديه عند مجرد المعرفة.. بل نراه يحاول أن يتحقق من معلوماته. فالطفل الذكر يجد أن أباه يمتلك أنثى.. هي أمه.. ويصل به خياله إلى أن إمتلاك الأنثى هو سبيل الرجولة ولا يجد أمامه من الإناث إلا أمه.. وفي تلك السن المبكرة لايكون هذا بالأمر المشين له بقدر ما هو أمر يهدده بالخطر. فرغبته في إمتلاك أمه التي تعد ملكًا لمثله الأعلى في الرجولة يعرضه للخوف. خياله يصور له أن أباه لا بد منتقمًا منه إذا ما علم برغبته في ذلك الإختلاس. ويكون هذا الموقف ذا حدين: فهو يريد إبعاد أبيه ليحصل هو على الأم، ويتوقع نتيجة لتلك الرغبة أن تتولد لدى الأب رغبة مماثلة في إبعاده.

بل ويتعقد الأمر أكثر إذا تبين أن الطفل إنما يريد إبعاد ذلك الشخص الذي يحبه ويكتسب من التوحد معه الأسلوب الذي يمكنه من امتلاك الذكورة.

والأمر بالنسبة إلى الفتاة لا يقل صعوبة. فهي الأخرى تريد أن تتشبه بأمها وتبقي لنفسها رجلًا. وليس أمامها إلا أباها رجلًا يحقق لها أنونتها. لذلك تقع في حيرة من أمر نفسها فرغبتها في الرجل

تتعارض مع حبها لأمها، وحبها لأمها الذي يمنعها عن أبيها – خطر على أنوثتها. وتشعر الفتاة بصراع مشابه لصراع الفتى.

ولا يقتصر الأمر على ذلك الصراع وحده. فالطفل الذي أدرك أن ذكورته تتمثل في عضوه التناسلي، يجد أن العقاب الذي يمكن أن يوقع عليه لرغبته في أنثى أبيه هو الحرمان من ذلك الشيء. أما الفتاة التي تجد نفسها محرومة من تلك الميزة التي يتمتع بها أخوها، تفسر حرمانها بأنه عقاب وقع عليها لتلك الرغبة.

وإزاء ذلك الخوف يميل الذكر إلى وضع الأمر في صورة صراع حول الأنثى. إما أن يحصل عليها بإخصاء خصمه، وإما أن يفقدها إذا تمكن منه الخصم.

أما الفتاة فإنها تبدأ المعركة بإحساس مبتدئ بالهزيمة، وإن طمأنها على حالها أن الذكور وحدهم هم الذين يملكون ما يفخرون به، وليس هناك ما تتمناه إلا أن تجد ما يعوضها عن فقدانها إياه كما عوض أبوها أمها عما تفقده.

وأخيرًا يجد الطفل نفسه في موقف يحتم عليه التنكر إلى إحدى الرغبتين وأن ينسى ما وراءهما من تهديد. فرغبته في الأم التي قد تأتي له بالخصاء هي الأولى بأن تنسى وتكبت، ورغبة الفتاة في الأب أجدر بأن تلقي في جب من الغفلة. وينتهي الأمر بتأجيل الحصول على الأم للذكر، وعلى الأب للأنثى إلى حين الكبر

والوصول إلى ما بلغه الأبوين. ويزداد اللاشعور ثراء، ويقوي ساعداه يريد أن يطبق على الشعور ليظهر سافرًا.. لولا حكمة التفكير التي تأبى أن تجعله يسود فيبدو البالغ طفلًا ويغدو العاقل نزقًا يطلب ما يستفحشه المجتمع.

تفكيرنا وكيف يسلم من المرض:

ولكن أين نحن بعد هذا الإستعراض من تفكير العقلاء البالغين. لقد تركنا الطفل في سنته السادسة أو بعد أن تجاوزها بقليل، فإذا حدث له بعد ذلك. إننا لا نحتاج إلى تتبعه بتفصيل فيما بعد.

لقد تغلب على أكبر العقبات بكبت نصف ذاته داخله مبقيًا على نصفها العاقل الرزين ليواجه به المجتمع. لقد تغلب على خوفه من الحرمان بالثقة. ثم أبقى على تلقائيته حية وتوهم أنه قد أمات تبعيته بإغفالها ونسيانها. ثم خرج من نطاق الأسرة إلى المدرسة ليغير من دائرة معارفه ويوسعها. ثم يخطو نحو البلوغ ومشارف الشباب وفيها يمتلك أسباب التفكير المجرد ليتعامل به مع عالم أوسع وأرحب – ويخطو إلى الرجولة بعد أن تمكن من سليم التفكير وأحكم سيطرته على ذلك الغريب الذي تكون فيه طفلًا ولا يزال قائمًا في ذاته. خلال تلك الرحلة الشاقة التي يقوم بها الإنسان ليصل إلى النضج، نلاحظ أنه يتنازل عن رغبات ليبقي على أخرى. والواقع أن الرغبة هي وجدان وموضوع. فالرغبة في إبتلاع ثدي الأم

وجدان الحب أحيانًا ووجدان الخوف والشك وعدم الإطمئنان في أحيان أخرى. أما موضوعها فهو الثدي إبتداء ثم كل ما يمكن أن يعطي شعورًا بالحب أو أن يتسبب في شعور بالخوف والشك وعدم الإطمئنان.

بعبارة أخرى يتنازل الإنسان في رحلته إلى النضوج عن قدر كبير من وجداناته وموضوعاته. وفي أحيان كثيرة يتنازل عن موضوعات يفصلها عن وجداناتها، أو عن وجدانات يفصلها عن موضوعاتها. فمن الناس من تجتاحه مشاعر الخطر وعدم الإطمئنان دون مبرر كاف، مما يدل على أنه قد تنازل عن موضوعات وأبقى على ما يرتبط بها من وجدان، بينما أخرون يتمسكون بمواقف معينة دون مبرر مقنع وعلى الرغم مما يجمل بها من إثارة الشك والألم، فيدل على نقيض الآخرين.

بعبارة ثانية يؤدى التطور السوي إلى كبت رغبات منفرة بما تتضمنه من موضوعات لا تتناسب وظروف الحياة ووجدانات تؤتي الألم بدلًا من السعادة.

وينتج عن هذا الكبت إبقاء رغبات سوية؛ موضوعاتها تصلح مادة للتفكير ووجداناتها تمتزج بها وتربطنا بعالمنا من خلالها فتجعل التفكير سويًا من حيث أحكامه؛ شخصيًا من حيث وجداناته.

أما التطور المريض فيتم فيه كبت فاشل للرغبات المنفردة فتبقى جوانب منها تتحفز لغزو عمليات التفكير إذا لم ينجح في إقامة علاقة طيبة بين الشخص وعالمه.

الموقف إذن يتضح بجلاء. إن رغباتنا تتحقق في العالم. فالرغبة في الطعام لها موضوعات إشباعها في العالم وهي أنواع الغذاء المختلفة. والرغبة في الشهرة تتحقق من التعامل مع الناس.

فإذا أمكن التفكير أن يكشف لنا عن تلك الجوانب من العالم التي تحقق لنا رغباتنا أحسن تحقيق فإن ما كبت من رغبات منفرة ووجدانات فاسدة لن تجد الفرصة للتسلل إلى حياتنا لتعذبنا وتفسدها.

أما إذا فشل التفكير في وظيفته فإنه سيتيح الفرصة لتلك الرغبات أن تؤرقنا وتفسد علينا الأمور.

معنى ذلك أن التفكير هو نتاج لتطور إدراك الإنسان لعالمه وتعامله معه. فإذا نجح التفكير في إرساء علاقة واقعية مع العالم وكشف للإنسان عن موضوعات مألوفة لتحقيق رغباته وإشباعها، فإن الرغبات المكبوتة لن تجد في هذا التفكير سبيلًا لكي تتحقق بل ستجد منه رفضًا وإعتراضًا.

وكما أوضحنا في تطور تفكيرنا، سنجد أن إتجاه هذا التطور يسير من تخيل وتصور الموضوعات والعالم إلى إدراك العالم إدراكًا واقعيًا بمعونة التفكير الرمزي والذي يقوم على المفاهيم.

وإدراك العالم واقعيًا يحتاج منا أن نتعامل معه عارفين له مدركين لأنفسنا ورغباتنا وتمام تلك العملية أمر غير يسير على الإنسان في كل الأحوال.

لذلك يجمل بنا قبل أن ننظر في تفكير المرضى أن ننظر في ظاهرة أخرى شبيهة بالمرض ولكنها شيء مألوف لدى الأسوياء كذلك.

التفكير والأَحلام

تكلمنا عن التفكير السوي عند الإنسان، فبينا ما فيه من تناسق وما بينه وبين واقعنا من إنسجام. ولكن أيظل الأسوياء يفكرون دائمًا على هذا المنوال وحسب تلك الأسس التي أوضحناها؟ إذا كان ردنا على هذا التساؤل بالإيجاب كما يتبادر إلى الذهن في أول وهلة.. فهل يظل كذلك لو حولنا نظرنا إلى الأحلام، ذلك النشاط النفسي المتفكك الذي يخبره المريض والسوي دون تمييز.

إن أكثرنا عقلًا وحكمة، وأقدرنا على إطاعة المنطق في تفكيره، لا بد أن حلم يومًا حلمًا، أبتعد فيه عن حكمته وتخلى عن منطقه. فنحن نحلم بالمتناقضات ونقبلها دون تردد، ونرضى فيها بالغريب دون إستهجان. فإذا ما أفقنا من نومنا شعرنا بغرابة ما كنا عليه، وطرافة ما فكرنا فيه أثناء النوم.

وقد يعترض معترض على تسميتنا ما حدث أثناء الحلم تفكيرًا، فأنى لهذه الأحلام أن تعد تفكيرًا، وهي أبعد ما تكون عن المنطق وأقرب ما تكون إلى الخلط والهلوسة، إن ما يدعونا إلى إعتبارها تفكيرًا هو نفسه ما يدفع المعترض على تسميته بالتفكير. أليس إعتراضه مبنيًا على إختلافها عن التفكير، وكأنه لا يجد مفرًا من

مقارنتها خفية أو علانية بالتفكير؟ إن ما يجعله ينظر إلى الأحلام نظرة التحقير والإستنكار هو حكمه عليها بأنها حيدة عن سليم التفكير وقويم المنطق. وفي هذا التحقير وذاك الإستنكار ضرب من ضروب الإعتراف بأنها – أي الأحلام – تفكير وإن كان شاذًا منحرفًا. فالأحلام تفكير وإن كان من نوع مخالف غير ما نألفه في حالة الصحو.

من تلك الملاحظة نستطيع تعديل موقفنا من الإنسان. فالإنسان العاقل السليم التفكير، يحيد عن عقله وسلامة تفكيره إذا أضجع ونام. وكأننا بصدد كإثنين يسكنان جسدًا واحدًا. أولهما رزين يتسم بالمنطق، والآخر نزق طائش يهمل المنطق ويعبث في قضاياه فسادًا، وما أن ينام الأول حتى يصحو الثاني.. والإنسان في هذا يحمل في ثناياه الغريب، الذي لا يعرف عنه إذا أفاق شيئًا.. ونقصد بالغريب هنا، ذلك الجزء من أنفسنا الذي كبتناه في طريقنا إلى النضج والذي لا شك باق يتحين الفرص كى يظهر مخربًا في التفكير. ولا شك أن النوم فرصة له ليفلت من رقابتنا..

لننظر الآن إلى ما يحدث لذلك الغريب إذا ما غفونا وتراخي رقيب الشعور عنه – إنه لا شك سينتهز تلك الفرصة كي يجد لنفسه سبيلًا إلى الإنطلاق. إننا في صحونا أسلك ونعمل ونفكر في إطار محدود بالواقع وعلى هداه – أما ذلك الغريب الذي أنتهى به

المصير إلى إنكاره وكبته، فأدواته للتعبير محدودة ضعيفة. فليس له على الجسد إلا سلطانًا خافتًا، ربما مكنه من تحريكه قليلًا، ربما جعله ينشط داخليًا، أما أن يدفعه إلى التنفيذ والإنصياع له فهذا أمر نادر، قلما نراه إلا في حالات الجوال الليلي، أو ربما في حالات نادرة يأتي فيها النائم بأمور بسيطة. لذلك لا يعدو أن يكون تأثير تلك الرغبات المكبوتة منذ الطفولة المبكرة نشاطًا ذهنيًا نطلق عليه كلمة الحلم.

وكي تظهر أساليب اللاشعور – وهو ما سبق أن أسميناه بالغريب لغرابته على الشعور – نعرض هنا بعض الأحلام وتفسيراتها لنبين من خلالها طباع هذا الجزء الخفي من ذواتها.

حلمت سيدة أنها في دار الأوبرا حيث أمتد العرض إلى ساعة متقدمة من الصباح. نصبت في القاعة مائدة الطعام حيث يجلس على المائدة قريب لها عاد من رحلة شهر العسل مع عروسه وصديق لها أتخذته عشيقًا في علنية تامة. أما في وسط القاعة فهناك برج قد أعتلاه قائد الفرقة الموسيقية التي جلست عند قاعدة البرج، حيث يقودها الشاب في هياج مجنون. وما هي في ذلك الحال حتي أمتدت إليها يد أختها من القاعة «بينما الحالمة تجلس مع صديقة في الشرفة» بجمرة كبيرة وهي تقول لها: لم أكن أعلم أن الأمر

سيطول كل هذا الطول، وأن البرد في الشرفات قد أصبح لا شك مثلجًا.

ولا شك أن في هذا الحلم من اللامعقول ما يجبرنا على التحفظ في وصفه تفكيرًا بالمعنى المألوف للتفكير. ولكننا إذا علمنا أن تلك السيدة كانت على شغف بموسيقى شاب أنتهى به الأمر إلى الجنون «برج المجانين» لوجدنا أن الأمر مشجع على متابعة الحلم لتعرف ما وراءه. لقد دفع حب تلك السيدة لذلك الشاب إلى تمني رؤيته وقد أعتلى الجميع يقودهم كما هو في الحلم، ولكنها صورت أمنيتها في إطار يسمح للعقل أن يتقبله على صورة أخرى « لقد اعتلى البرج وهو برج الجنون». إنها تشعر بالحرمان من ذلك الحب الدافئ، وتشعر ببرد الوحدة، فإذا بأختها تمد يدها لتعطيها ما يعوضها عن ذلك البرد الذي تعيش فيه بعيدة عن الجمع الذي أجتمع بالقاعة وتقول الأغنية:

ما من نار وما من جمر يتقد ويستعر
مثل حب مستتر لا يعلمه أحد

فلو دققنا في الحكم بعد ما أمدتنا به الحالمة من أفكار تتعلق بأجزاء منه لوجدنا أن لسان حالها في الحلم يقول: ما أشد برد العزوبية التي طالت منذ أن فقدت حبيبي الذي طار برج عقله بدلًا من أن يعتلي برج الشرف والقيادة. ولكم أريد أن أستدفئ بحب ولو

في الكتمان ما دمت لا أستطيع أن أتخذ لنفسي عشيقًا علنيًا كتلك العروس التي تزوجها قربي.

هذا الحلم إذن رغم غرابته يحمل معنى وإن كان بعيدًا عن متناول تفكيرنا العادي. وغرابته تأتي من طريق التعبير عن هذا المعنى. فالجمرة تصور الحب، والجنون إعتلاء للبرج، والعزوبة التي طالت تصور بعزلة في مكان بارد. إن الحلم إذن يعبر عن عديد من الأفكار بصور بدلًا من كلمات. ولكن هل هذه هي القاعدة: لننظر في حلم آخر لسيدة قاربت أن تنتهي من علاجها النفسي في مدينة كبيرة تسكنها بغرض العلاج وحده. كانت تلك السيدة قد ألحقت أبنتها بمدرسة بتلك المدينة لتتمكن من رعايتها في غربتها أثناء العلاج. حلمت هذه السيدة بأنها تريد أن تدفع ثمن شيء ما فتأخذ أبنتها منها ثلاثة جنيهات (٣) وخمسة وستين قرشًا (65) فتقول لها الحالمة: إن هذا لا يكلف أكثر من واحد وعشرين قرشًا (٢١) فقط.

هذا الحلم المركب من أرقام لا علاقة لها ببعضها يحمل في طياته معنى له صلة بإقتراب إنتهاء العلاج الذي بقيت عليه ثلاثة أسابيع «21 يومًا» والذي ترغب السيدة لو أنه بقي عامًا آخر «365 يومًا». ولكنها ترى أن العلاج يكلفها الكثير. فتحلم بكل تلك العلاقات العددية التي تشير إلى عدد الأيام الباقية والتي تود لو

أستمرت أكثر من ذلك. إلا أن الإشارة إلى الوقت والأيام بالجنيهات والقروش يدل على أنها تحسب الأمور بمعيار الذهب وكأنها تقول «الوقت من ذهب». وبذلك يكون المعنى الكلي للحلم: لو أن ثمن العلاج لعام أنخفض ليصبح ثمن علاج لثلاثة أسابيع ما ترددت في إطالة الأمر عامًا آخر...

من هذين الحلمين وغيرهما نلمح أن الأحلام جميعًا إنما تصوغ رغبات للحالم لم يستطع أن يحققها في صحوه، فسعى إلى تحقيقها في نومه. ولكن تحقيقها في النوم لا يكون على نفس النسق وبنفس الوسائل الفكرية المعتادة. إذن ما هي وسائل التفكير في الأحلام؟

وسائل صياغة الحلم:

لا يراعي في الحلم منطق أو تعقل – فالأضداد تتألف وللعقول يقلب ويصبح نشاط العقل أثناء النوم ضربًا من الهوس. والواقع أن الوسائل الأربعة المعروفة في صياغة الأحلام جميعًا تدل على أن منطق الأمور في الأحلام له طبيعة المنطق الفكري للطفولة وقبل نضوج التفكير الرمزي للبالغين.

(1) التصوير البصري في الحلم

إن أول تلك الوسائل هي تصوير الأفكار تصويرًا بصريًا. فالأحلام في أغلبها صور تعبر عن أفكار. الجمرة هي الحب والتفوق

إعتلاء الناس والعزوبة برد وقشعريرة. ونموذج التصوير الفكري في الأعلام يأتي من لغتنا الدارجة. فإذا أردنا أن ندعو لشخص بالخير قلنا له رفعك الله درجات فوق درجات. من هذا تصاغ الفكرة في الحلم حيث لا توجد في لغة النوم إلا الصور التي تعد كلمات إذا رتبت ترتيبًا صحيحًا نقلت إلينا المعنى وأوضحت لنا الرغبة وراء الحلم.

(ب) النقل والإبدال:

وثاني الوسائل هو النقل أو الإبدال. فعندما تكون الرغبة منفرة يأباها الشخص إباء شديدًا فإنه في حلمه يجعلها رغبة آخر يقف هو منه موقف المعترض أو المنفرج. فتلك الفتاة التي حلمت بحبيبها المجنون، إنما نقلت رغبتها في عشيق إلى تلك الفتاة الأخرى – وأبقت برد الحرمان لنفسها، بينما كان معنى الحلم يشير إلى أنها تود لو كانت هي تلك الفتاة المستمتعة.

(جـ) التكثيف:

وثالث تلك الوسائل ما يسمى بالتكثيف. ففي الأحلام يتعامل الحالم مع شخص يشبه آخر وله أسم شخص ثالث في الوقت الذي يمثل فيه هذا الشخص إنسانًا رابعًا. ويقبل منطق الحلم ذلك المزج والخلط لأغراض يضيق عن شرحها المجال. إلا أن تلك الوسيلة إنما

تخدم غرضًا واضحًا وهو مجاراة الوسيلة الأولى التي يباشر فيها الحالم صياغة أفكاره في صور تؤلف جملة.

(ء) الرموز:

ورابع تلك الوسائل هي الرموز – والواقع أن الرموز تحتل مكانًا هامًا في المحاولات غير العلمية في تفسير الأحلام، ولكنها لا تحتل هذا المكان في التفسير العلمي للأحلام. فالرموز وسيلة لا يلجأ إليها الحالم إلا في ظروف تمتنع عليه فيها الإستفادة من الوسائل الثلاثة السابقة – وتتبع الرموز من تراث الشعب لتجعل الملك رمزًا للأب فهو أبو الرعية، وتجعل الدغل غابة والغابة رمزًا لأجزاء من جسد المرأة الغامض، وتجعل من قطع ملابس الرجال رموزًا للرجولة، وهكذا. وعادة ما نجد تلك الرموز في الملح والنكات والنوادر.

ولكن لنعد فنسأل من جديد: أين الأحلام من التفكير؟ الواقع أننا قد تبينا أن التفكير الإنساني إنما هو محاولة الإنسان أن يحقق رغباته، تلك الرغبات التي يرضى عنها المجتمع ويوافق عليها الضمير. ولكننا تبينا أن هناك رغبات أخرى يكبتها الشخص ولا بد أن يجد لها نوعا من التفكير الذي يحققها. لذلك يعد الحلم هو ذلك التفكير الإنساني الذي ينشط أثناء النوم ليحقق للسوي تلك الرغبات المكبوتة التي لو عبر عنها في صحوة لأصبح مريضًا.

الحلم والمرض النفسي:

هل معنى ذلك أن الحلم مرض؟ نعم.. إن أحلامنا ضرب من المرض النفسي والعقلي الذي نعيشه فترة الليل حتى لا نعيشه في نهارنا فنشقى به... بل إننا إذا درسنا المرضى النفسي والعقلي سنكتشف أن وسائل الحب الأربعة لها طبيعة التفكير في تلك الأمراض.. إلا أن ما يهمنا الآن هو الإنتباه إلى الحقيقة القديمة والجديدة في نفس الوقت.. لقد قلنا إن إختفاء التفكير السوي يسمح للوجدانات والرغبات المكبوتة من الظهور. وهنا في الحلم نجد أن غفوة النائم أشبه بإنسحاب التفكير السوي وإنكماشه إلى حد كبير لذلك تظهر الرغبات المكبوتة واضحة وكتفكير خرف غريب. من هذا يمكننا أن ندخل إلى عالم المرض النفسي. هل المرض النفسي غفوة للتفكير السوي أم هو تفكير من نوع خاص؟ أو إذا أردنا الدقة ماذا يحدث عندما يمرض تفكيرنا؟

عندما يمرض تفكيرنا

لم نتعرض حتى الآن في إستعراضنا للتفكير وإختلافاته – لم تتعرض لما يصيب التفكير من مرض. فنحن نتباين في تفكيرنا دون أن نشذ. ولكن بعضنا يتباين في تفكيره حتى الشذوذ مما يجعلنا نطلق عليه ما ينعته بالجنون إذا كان الشذوذ دائما وواضحًا، أو أن

نصف حالته وصفًا مخففًا إذا كان الأمر في نطاق محدود أو في مجال بذاته أو في وقت بعينه.

ولنا أن نتساءل الآن. كيف – يمرض التفكير حتى يصبح دليلًا على الجنون أو حتي يشير إلى إضطراب نفسي بسيط.

لقد أشرنا فيما سبق إلى مواطن ثلاثة ينبع منها إختلاف تفكير الأسوياء ونلخصها في القدرة على تكوين وفهم واستعمال المفاهيم، وميلنا إلى الإهتمام بشكل الموضوعات أو بمضمونها، ثم سهولة الإنتقال من الشكل إلى المضمون أو بالعكس. فهل يمكن لنا أن نرجع مرض التفكير إلى تلك المواطن الثلاثة ذاتها – أم أن هناك مصدرًا آخر للإضطراب في موضع آخر بين تفكيرنا؟ وإذا كان مرض التفكير يصيب تلك الجوانب بذاتها فهل يسمح ذلك بإندفاع الوجدانات المكبوتة إلى علاقتنا بالعالم؟

قبل أن نبت برأي في هذا الموضوع، نميل قليلًا إلى مشكلة قديمة في علم الأمراض النفسية فنلم بأطرافها. لقد ظل علماء الأمراض النفسية يتناقشون ويتباحثون في أصل الإضطراب العقلي الذي يسميه العامة جنونًا والذي يسميه المتخصصون «ذهانًا» فقال البعض إن الذهان ما هو إلا نقص متضخم في التفكير. يدفع الشخص إلى سوء الحكم على الأمور ويعزله عن الواقع فيشذ سلوكه حتى يصبح مجنونًا أو مذهونًا. وقال البعض الآخر إن الذهان يختلف

في جوهره وفروعه عن أي سلوك سوي – بل إن السلوك الذهاني له أصل وخصائص لا يمكن مقارنتها من أي وجه بأي سلوك سوي.

وقد رجحت البحوث النفسية الكثيرة الرأي الثاني القائل بأن الذهان مستقل عن السواء في أصله منعزل في طبيعته عن السلوك العادي للأفراد. وقد بينت أكثر تلك الدراسات أن الذهاني يختلف عن السوي في أعظم نواحى شخصيته إختلافات أصلية. وقد دفعت تلك الحقائق العلماء المنادين بالرأي الأول إلى تعديل نظريتهم فقالوا بأن التغير الكمي في سلوك السوي ينقلب عند زيادته زيادة كبيرة إلى تغير كيفي – أي إلى تغير يصيب طبيعة السلوك – وبذلك أصبحت الشخصية الذهانية والتفكير الذهاني ذا صفات مستقلة قائمة بذاتها.

ثم تطرق النقاش إلى تلك الأعراض النفسية التي نرى البعض يعاني منها دون أن تدفعه تمامًا إلى هوة الجنون. وقد أطلق علماء النفس على تلك الحالات لفظ «العصاب» مفرقين بينه وبين «الذهان» بطبيعة خاصة لجملة الشخصية. فقد ميزوا في الذهان إنفصالًا تامًا بين الشخص وواقعه دون إحساس الشخص بهذا الإنفصال – بينما وجدوا في العصاب أن حالة الشخص مهما زادت حدتها لا تبعد إلا جوانب محددة من شخصيته عن الواقع مع إحساسه من وقت لآخر بغرابة سلوكه هذا، لقد تطرق الحديث أيضًا

إلى العصاب وهل هو درجة بين الذهان والسواء أم أنه يتميز بخصائص معينة.

ورغم شدة الميل إلى إعتبار العصاب مرحلة وسط بين شذوذ التفكير وسوائه، إلا أن هناك ما يرجح إعتباره مجموعة مرضية لها طبيعتها المستقلة أيضًا.

نعود الآن إلى سؤالنا كيف يمرض تفكير الشخص فيصبح دليلًا على الذهان أو العصاب؟ وهل يمكن أن تكون مواطن الإختلاف الثلاثة المشار إليها هي نفسها المعرضة للشذوذ والمرض؟

نستطيع الآن أن نخاطر فنعتبر تلك المواطن ذاتها هي مواطن الشذوذ في التفكير الذي يؤدي بالشخص إلى الذهان أو العصاب. ولم لا!!

فما دام تحليلنا للتفكير لم يخرج عن تلك الأوجه الثلاثة فما الذي يدعونا إلى الإلتجاء إلى وجه آخر لم نصادفه في تفكير الأسوياء؟

وما دام الأفراد يختلفون فيها كميًا، فليس هناك مانع أن يختلفوا فيها كيفيًا أيضًا. فليس من المستبعد أن نجد الذهاني يكون ويفهم ويستعمل المفاهيم إستعمالًا يختلف في أصله عن السوي. وليس من الغريب أن يكون إدراكه للكون يتسم صفات خاصة من حيث تعامله

مع شكل الكون ومضمونه. وليس من البعيد أن نجده يتميز بأسلوب خاص في تنقله بين الشكل والمضمون إذا كان يتنقل بينهما في تفكيره مثلنا. والأمر يصح بالنسبة للعصابي أيضًا. فرغم أن شذوذه محصور ومرقم ومؤقت بظروف معينة، فربما وجدناه أيضًا يتمتع بأسلوب فريد في التفكير في حدود تلك الظروف.

لذلك سنتناول إضطراب التفكير عند العصابي وعند الذهاني من نفس الأطراف الثلاثة التي تناولناها في دراستنا لتفكير الأسوياء.

تفكير المصابين «المرضى النفسيين»

أصبح من الشائع في أيامنا هذه أن يستعمل الناس في أحاديثهم تعبيرات علم النفس بوفرة. فالذي يحدثك عن غرابة سلوك يستسهل أن يفسر تلك الغرابة بعقد النفس وشذوذها. وقد تعدى الأمر حدود سلوك الناس إلى سلوك الأمم والجماعات فهناك من يحاول أن يفسر سياسة الدول أو بإتجاه الجماعات على أساس عوامل نفسية تصطدم في نفوس الناس عامة وبشكل موحد.

وإزدياد إهتمام الناس بعلم النفس لم يكن وليد إنتشار الأمراض النفسية في عصرنا بشكل لم يعهده الأقدمون. بل لقد خبر أسلافنا تلك الأمراض، وإن فسروها تفسيرات أخرى بعيدة عن علم النفس. وليس هذا الإهتمام نتيجة إزدياد حساسية الناس بأمراض النفس في

القرن العشرين، كما قد يحلو للبعض أن يفسره بل يعود هذا الإهتمام إلى ما وجده الناس في مكتشفات علم النفس من سبيل إلى فهم ما ظل منذ القدم بعيدًا عن الفهم مستغلقًا عليه.

لقد كان الأقدمون يفسرون أمراض النفس بإعتبارها نتيجة لتدخل قوى خارجية لا نعقلها في شئون الشخص. فليس المرض النفسي – لدى الأقدمين – نتيجة لما فينا من شذوذ، بل هو نتاج سيطرة قوى السماء أو قوى الأرض على جسد المريض. لذلك لم يتوانى أطباء تلك العصور عن معاملة هؤلاء المرضى بقسوة لأنهم لم يشعروا بأن قسوتهم موجهة للمريض، بل إلى تلك الروح الشريرة التي تقمصته. ثم جاء التحليل النفسي ليكشف لنا ما في نفوسنا ونجهله، الذي يسبب لنا الإضطراب. ووجد الناس في تلك التفسيرات أمورًا أقرب إلى عقولهم من التفكير الخرافي السحري الذي لمسه الأقدمون. وأصبح من اليسير على غير المتخصصين أن يشرحوا شذوذ النفس بعبارات «كالعقد»، واللاشعور، والصراعات الجنسية.

إلا أن ذلك الإهتمام بالتحليل النفسي ووفرة إستعمال مفهوماته، لا يدل على فهم الناس لذلك الجانب من المعرفة الإنسانية فهمًا صحيحًا، فالسلوك الغريب لا يفهم على أنه نتيجة لأمور لا نشعر بها... وبذلك لا نفهمها بل لقد كان دور التحليل النفسي في إجلاء الغموض عن دوافع النفس يدور حول إستبدال التفسيرات الآلية

كالعفاريت أو حتى الإضطراب الفسيويولوجي بشرح دينامي لعوامل واضحة نفهمها. إلا أن الأسلوب العلمي حتم على علماء التحليل النفسي أن يصوغوا تفسيراتهم في عبارات مختصرة، تلك التي أستبدل بها الناس العبارات السابقة وأستعملوها نفس الإستعمال.

ربما أعتبر البعض أن ذلك الرأى مثبط لهمتهم ومحبط لرغبتهم في مسايرة عصر علم النفس. وقد يجد البعض فيه محاولة لكي يبقى علم النفس إحتكارًا لعلمائه ولكن القصد من ذلك الرأي هو تبصير هواة علم النفس بمواطن الخطأ التي يندفعون إليها دون ترو. بل يتعدى الأمر مجرد إظهار مواطن الصعوبة إلى الكشف عن أصول أخرى في علم النفس ربما كانت مجالًا لهم كي يستمتعوا بعلم النفس استمتاعًا أكبر.

العقدة النفسية Complex:

من الطريف حقًا أن نختار تعبيرًا نفسيًا كتعبير «العقدة» مثالًا لما في إستعماله الحالي من خطأ، ولما في إستعماله الصحيح من مزايا. لقد شاع إستعمال كلمة العقدة بشكل كبير في حياتنا اليومية، حتى أصبح يطلق على كل سلوك لا نفهمه أو كل شعور لا نستسيغه. والواقع أن هذا التعبير ترجمة خاطئة لأصله الأجنبي وهو Complex ويعود إصرارنا على إستعمال الترجمة الخاطئة إلى نفس السبب الذي جعل هذا التعبير يشيع في أمور معايشنا بهذا الشكل

الواضح. ويمكن لنا لو أننا وجدنا السبب في خطأ الإستعمال وفي شيوع الإستعمال لذلك التعبير، أن نقترب إقترابًا كبيرًا من طبيعة التفكير عند المرضى النفسيين.

إن الترجمة الصائبة لتعبير Complex هي مركب. ولكن ما الذي جعلنا نستعمل كلمة العقدة بدلًا منها؟ الواقع أن «العقدة» تقف عند طرف يكون طرفه الآخر هل «الحل». فلو نظرنا إلى ما في هذا التقابل من معنى لوجدنا أننا نستعمل كلمة العقدة للدلالة على عكس الخل أو الإنطلاق. فكل سلولاك نفهمه هو في الواقع سلوك به جانب مكفوف، أو هو محاولة لإتيان فعل دون القدرة على إتيان هذا الفعل مما يخفيه عنا ويجعلنا لا نفهمه. فهذا الشخص معقد من الرؤساء، أي أنه لا يستطيع أن يتعامل معهم بطريقة سليمة. وذلك معقد من الزحام، بمعنى أنه لا يمكنه أن يقضي فترة في زحام رغم ضرورة ذلك في حياته اليومية، العقدة إذن تعبير عن الرغبة في شيء عن تحقيق الرغبة مما يجعل السلوك غير مفهوم والتصرف شاذًا ومعقدًا. ولو حاولنا أن نفحص تقاليدنا كي نفهم موقفنا من الإنطلاق والتعقد لوجدنا في ريفنا من يؤمنون بفاعلية الربط، والربط هو سحر يوجه إلى عدو فيصبح عنينًا لا يستطيع الإستمتاع الجنسي، وليس من باب الصدفة فقط أن نستعمل كلمة العقدة كتعبير مهذب علمي للدلالة على شيء يعنيه غير المثقفين وهو الربط. فالواقع أن السلوك

المعقد هو ربط وحرمان من الحصول على المتعة بصورها المختلفة وغير الجنسية أيضًا.

السبب المشترك إذن بين إستعمالنا لكلمة العقدة بتلك الوفرة وإصرارنا على الترجمة الخاطئة هو أن السلوك المعقد، سلوك يحرم الشخص من تحقيق رغبته ويمنعه من الوصول إلى متعته. ولو أردنا أن نزيد الأمر إيضاحًا لقلنا بأن المريض النفسي يتميز بسلوك مركب لا نفهم عناصره كما أنه لا يفهم علته، هو سلوك لا يهدف إلى المتعة والسعادة بل إلى شيء أقرب إلى العذاب والشقاء. ولكن ما الصلة بين ذلك السلوك المركب وبين عناصر التفكير الثلاثة التي سبق أن أثبتناها بصدد التفكير السوي؟، وحتى نعود فنذكر ما أثبتناه، ما هى علاقة المركب النفسي بالتعامل مع المفاهيم وبالميل إلى الشكل أو المضمون، وما علاقته بسهولة الإنتقال بين الشكل وبين المضمون.

الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تعود بنا من جديد إلى كيفية تكوين المفاهيم. وحتى تبرز تلك النقطة سنتناول عرضًا نفسيًا واضحًا نعالجه معالجة فكرية لنحاول أن زفهم تركيبه ولنخرج منه بحقائق تخص عملية نشأة المفاهيم لدى الإنسان المريض.

حالة مرضية:

موظف شاب يعمل بإحدى الشركات، أصابته نوبة شديدة من القلق والشعور بالإكتئاب. وقد أصابته تلك النوبة بعد أن رقّي إلى منصب نائب مدير الشركة التي يعمل بها. وكان هذا المنصب موضع طموح الشاب منذ أن إلتحق بالشركة وعمل جاهدًا حتى ناله عن جدارة جعلت مدير الشركة يشجعه ويدفعه لنيل مأربه. وحتى تكتمل لنا صورة هذا الشاب، يمكننا أن نعرف عن تاريخه أنه الإبن الوحيد لأمه الأرملة، التي توفى عنها زوجها منذ كان هذا الشاب طفلًا صغيرًا مخلفًا لهما فقرًا وعوزًا. ودفعته أمه إلى عمه الثرى أملًا في أن يعينه وأمه على رقة حالهما، فما كان من العم إلا أن قابله مقابلة جافة ورده ردًا عنيفًا أحفظ نفس الطفل عليه وأفقده حبه له. ولم يتثن طفلنا هذا عن قويم السلوك فكبر وعمل حتى إلتحق بتلك الشركة وتدرج سلمها إلى أن نال ذلك المنصب الرفيع فيها وأصبح قاب قوس واحد أو أدنى من منصب المدير الذي إقتربت سنه إلى حد المعاش. وهنا جاءته النوبة فأفسدت عليه فرحته بالعمل الجديد وحرمته من ثمرة جهد آل على نفسه أن يبذله بعد أن رده عمه ردًا قاسيًا.

الوقع أن عرض هذا الشاب لم يقتصر على مجرد القلق والإكتئاب بل لقد رفض أن يحصل على مرتب الوظيفة الجديدة

وتغيرت علاقته برئيسه الذي حباه برعايته وحبه فأصبح يضطرب ويرتبك إذا لقيه أو إجتمع به وكأنه قد أساء إليه إساءة بالغة بعد ما كان على ألفة شديدة معه. وكثيرًا ما كانت تراوده أفكار الإنتحار متهمًا نفسه إتهامات خلقية مزعجة، وإنتهى به الأمر إلى عدم مغادرته بيته حيث بقي بجوار أمه.

لا يسمح المجال بأن نعرض مراحل الكشف في جلسات علاج هذا المريض، لذلك سنكتفي بعرض بعض ما تكشف خلال علاجه وعود تفكيره إلى حال السواء.

إن النقطة التي إنطلقت منها شخصية هذا الشاب فأحالت حياته إلى شقاء تكمن في ذلك الموقف الذي وقفه يومًا أمام عمه. فقد كانت حاجة هذا الطفل إلى عمه حاجة مزدوجة وشديدة، فمن جانب كان في حاجة إلى عمه بديلًا لأبيه الذي فقده بعد أن أحبه، ومن جانب آخر كان في حاجة مادية لذلك العم حتى يعينه ووالدته على قسوة الأمور. بل ربما تداخل الأمر بين الجانبين فأصبح حصوله على معونة العم المادية دليلًا على تقبل العم له وجدانيًا. فلما رفض العم ذلك العون المطلوب منه أحنق عليه الطفل وأشعره بالذلة فأبدل الحب الذي أتاه به إلى كره نحوه. ولشد ما إضطربت نفس الطفل لحظتها. لقد تمنى ساعتها لو أن الأماكن تبادلت فأصبح هو العم الثرى وغدى العم هو السائل المحتاج، عل في ذلك التبادل

ما يعفيه من الخجل وما يشفي غليله في أن يرد القسوة إلى عمه. ومن شد قسوة الموقف عليه ومن فرط ما كان في حاجة إلى عمه، زادت رغبته في أن يتبادل مع عمه الأدوار ليقسو عليه قسوة شديدة. ولكن نفسه البكر لم تتحمل تلك القسوة منه تجاه عمه وأثارت شعورًا بالإثم ساعده على كبت رغبته وتحويلها إلى الطموح والتفوق. وفي طموحه ورغبته في التفوق إنما كان يسعى إلى نفي شعوره بالحاجة إلى أحد وإلى إلغاء تلك الرغبة في أن يصبح هو سيد الموقف ومانح الحب أو مانعه. والواقع أنه في كفاحه في الحياة إنما كان يهزم عمه الذي هزمه ويتفوق على عجزه الذي أقلقه وأوقع في نفسه الخجل لما يثيره من رغبات عدوانية.

تلك هي النظرة العامة لموقفه من عمه. ونحتاج إلى نظرة خاصة إزاء ظهور رغبته في حب عمه وفي مصير تلك الرغبة. حتى يمكننا أن نتحسس بداية تكون مفهومه عن الحب والكره ومفهومه عن العلاقة بالرؤساء وبالمرءوسين.

لقد رغب هذا الطفل في حب عمه كما رغب في دليل الحب وهو العون والتشجيع. فلما صده عمه وأحبط مسعاه وجدنا الطفل يرغب في أن ينقلب هو العم ويتحول العم إلى حالته. والواقع أننا في طفولتنا، نرغب بل و نشطط في رغباتنا دون أن نعرف كيف نريد. فالطفل يعرف ما يريد ولكنه لا يعرف كيف يريده. وطفلنا هذا عرف

ما يريد وهو ألا يكون في حاجة إلى عمه، ولكنه لم يعرف كيف يحقق هذه الرغبة تمامًا. إن عجزه عن أن يصبح في غير حاجة إلى عمه جعل من هذا العم مثالًا يود لو أنه أصبح مثله، وأبّي له ذلك في سرعة إلا بإستيلائه على ثروة العم وعلى مكان العم ومركزه. وماذا يكون حال العم إذا ما إستولى صاحبنا عليه، لا شك أن حال العم سينقلب ليحتل مكانه ويصبح هو الصغير المحتاج السائل. إننا هنا بـــإزاء عمليـــة يســـميها علمـــاء التحليـــل النفســـي بـــالتعيين Identification. وبعبارة أخرى، لقد حدد طفلنا الرغبة بالعم وحدد نفسه بعمه، وفي هذه اللحظة التي لا يمكن لشعور الطفل أن يعيها يلتبس الأمر عليه فلا يعرف من الذي يرغب ومن الذي يمنع، ومن الذي يذل ومن الذي يستهدف للإذلال. إنها لحظة تبتلع وجوده كله وتشكل مستقبله إلى أمد بعيد، حيث يستمد المستقبل زاده من الحركة من تلك اللحظة التي تجمد عليها وجدان الطفل فإنقلب حبه بغضًا وتغير ميله إلى الحصول على عطف العم إلى قسوة يريد تنفيذها تجاه ذلك العم.

في تلك اللحظة التي خبر فيها الطفل وجودًا قاسيًا أراد فيه أن يخرج بمفهوم عن الحب يميزه عن الكره ومفهومًا عن السطوة يميزه عن الذلة، حدث هذا الخلط بينه وبين عمه. ولا شك أن عمه كان يمثل في ذلك الموقف الكره أو رفض الحب والسطوة والقدرة على

الإذلال بينما كان الطفل يمثل الأقطاب المقابلة. فلما حدث الخلط وتعين بعمه وكبت رغبته تلك، حدث خلط في تلك المفاهيم البكر كذلك فإمتزج الحب بالكره، والقوة بالضعف وأصبح من الصعب على طفلنا أن يخصص من تلك المفاهيم فيما بعد.

يمكننا أن نجمع بين خاصية تكوين المفاهيم وقابلية المفاهيم للإنتقال إلى مستوى التخصص والتخصيص في وحدة واحدة. وفي طفولتنا ونحن بعد على غير خبرة بالصورة المختلفة للأمور، لا نجد مفرًا من أن تتشبث بما كوناه من مفاهيم سريعة وعامة ولا نستطيع أن نتخلى عنها لخشيتنا من أن نتوه في خضم التفاصيل التي تتوارد علينا. لذلك نلاحظ ميل الأطفال إلى أن يعالجوا مشاكلهم معالجة لها طابع التخصيص. فإذا رغب الطفل في كرته الحمراء رفض أي كرة أخرى لها نفس الصفات دون أن تكون كرته. والواقع أنه في ذلك بعمم ولا يخصص لأن كرته هي كل الكور أما غيرها من الكور فلا صلاحية لها مهما كانت. من هنا يبدأ تكوين المفاهيم، تبدأ عيانية مادية أولًا، لها طابع التخصيص ولكنها تعميمية من حيث علاقتها بالشخص نفسه. ومع إزدياد الخبرة بالعالم وتنوع تلك الخبرة تتحول إلى التخصيص دون أن تترك مقعدها الأصلي وهو العموم. ولا يتأتى للإنسان أن ينتقل إلى التخصيص إلا إذا ميز بين ما يراه وبين ما يراه الآخر، فبدون ذلك يظل يستعمل مفاهيمه بوصفها

تلخيصًا لعالم يعيشه هو وحده في الوقت الذي يكون العالم على شاكلة أخرى بالنسبة إلى الآخر.

إن إدراك وتمييز وجهة نظر الآخر عن وجهة نظره بالذات يفتح لنا المجال للدخول مباشرة في طبيعة تفكير المريض النفسي. فالطفل الذي عاش خبرة إنفعالية قوية في علاقته بعالمه، ينجذب إلى تلك الخبرة إنجذابًا شديدًا بكل ما عاناه فيها من تهديد لوجوده في إنجذابه نحوها يظل ويبقى معتقدًا أن ما تكون لديه من مفاهيم بكر وأفكار ذاتية تصلح لما يتلوا من مواقف. بل الأكثر من ذلك، أن تعطيل إنطلاق المفاهيم نحو آفاق التخصيص نتيجة لبقاء الرغبة في إكتشاف الواقع مركزه على الطفل نفسه، أن ذلك يجعل المواقف الأخرى والتي لا علاقة لها بالخبرة الماضية تأخذ في خيال الشخص نفس شكل تلك الخبرة السابقة.

شكل المواقف وعلاقته بالمرض النفسي:

لنعد إلى الشاب المريض لنلاحظ كيف يحدث هذا الأمر الغامض. إذا نظرنا إلى حالته بعد نيله الترقية لوجدناه يبدي سلوكًا غير متوقع. فقد حقق رغبته في الترقية والتي بذل الجهد الشاق في سبيلها، ولكن ذلك سبب له الشقاء بدلًا من أن يسعده. وإنقلب حب مديره له من مصدر لإطمئنانه وألفته إلى مصدر لخجله وشكه و تخوفه. إن تحقيق رغبته في الترقية أصبح مثيرًا لسلوك مناقض تمامًا

لما يجب أن يحدث. ولفهم الموقف يجب أن نعود إلى تحليل موقفه الأسبق من العم.

إتجه الطفل إلى عمه ولديه رغبة في إمكان العم أن يحققها له، وعاد الطفل وقد رده العم فلم يحقق له ما أراد. فعناصر الموقف هي:

(أ) رغبة في المساعدة من العم مضمونها الأمل ونتيجة تحقيقها الحب.

(ب) رفض العم مساعدته ومضمونة اليأس ونتيجة ذلك الكره.

(ج) رغبة في أن يصبح هو العم ومضمونها العدوان ونتيجتها الخجل والخوف.

أما موقفه من مديره فيضم هذه العناصر.

(أ) رغبة في الترقي ومضمونها الأمل ونتيجتها الحب.

(ب) تحقيق لتلك الرغبة مضمونها اليأس ونتيجتها الخجل والخوف.

لو قارنا بين الموقفين لوجدنا أن هناك حلقة مفقودة إذا وصلنا إليها إتضحت لنا هذه النتيجة غير المتوقعة. إن الإختلاف بين موقفه من عمه ومن مديره يتركز في أن الأول لم يحقق الرغبة والثاني

حققها. وكانت النتيجة واحدة. الحلقة المفقودة إذنً هي تحول تحقيق الرغبة إلى إحباط.

كيف يمكن أن يحدث ذلك إن لم يكن تحقيق الرغبة إحباطًا لرغبة أخرى؟ الواقع أن موقفه من عمه وكما سبق وأوضحناه لم يكن موقفًا نقيًا إن رغبته في الطفولة كانت مزيجًا من مال وحب وكان ما جاء به الطفل إعلانًا لرغبته في المال وإخفاء لرغبته في الحب. لذلك إنتهى به رفض عمه إلى إنكار للحب وكبت له وإبقاء للمال والقوة وإعلان لها. وعندما حقق له مديره رغبته في المال والقوة كانت ذلك إثارة لما كبت، حرف وحول إلى كره وخجل وخوف. لذلك أدى تحقيق رغبته العلنية إلى تحقيق ضمني لرغبته التي أخفاها فأثارته مما جعله يرفض الترقية حتى لا يحقق تلك الرغبة المكبوتة. لقد كان تحقيق الرغبة إحباطًا لرغبته في أن يخفي كرهه لمديره الذي خلط بينه وبين عمه.

ولكن يلح هنا تساؤل جديد. لماذا أخفي هذا الطفل رغبته في الحب وإعتبرها جديرة بالكبت؟ ثم كيف إرتبط الحب المرفوض والمتحول إلى خجل وخوف بالترقية؟ إن هذا الطفل في إتجاهه إلى العم بعد وفاة أبيه لم يكن في حال سوية في عمومها فموت الأب الذي كان الطفل يحبه ويكرهه في نفس الوقت وكما سبق أن بينا في مرحلة الأوديب جعله يحاول أن يخفي حبه لأنه ممتزج بالكره وأن

يعلن رغبته في المساعدة المادية وحدها. وعندما رفض العم ذلك وأثار في الطفل الغضب عاودته مشاعر العداء القديمة تجاه الأب فأسرع بكبتها وإخفائها وإبدا لها بالخوف والخجل. وقد تحولت هذه المشاعر إلى الخوف والخجل لتأنيب ضميره على رغبته في إبعاد أبيه وهو ما تحقق. وهكذا إرتبطت الترقية بالخجل والخوف. لقد كان موت أبيه ترقية له من مرتبة إبن إلى مرتبة والده. وكان الجدير به إذا نفذ كرهه في العم أن يرتقي ليرث ماله ويحل محله. ثم كانت ترقيته من مديره تحقيقًا لما يثيره فيه الشعور بالذنب لأنه سيصبح هذا المدير ويرث ماله أو راتبه.

لقد كان امتزاج الحب بالكره نحو والده ومحاولته كبت الكره والشعور والخجل نتيجة ذلك، ولقد كان فكاك الكره من إسار الكبت في موقفه من عمه ومقاومته ذلك بإبقاء رغبته في التفوق، لقد كان ذلك مدعاة لإكتساب مفهوم عن الحب بإعتباره عدوانًا. ومفهوم عن الترقي بإعتباره سطوًا على مال الغير. وليس مما فيه شك أن ما خبره الطفل صغيرًا كان فعلًا حبًا مزيجًا بكره ورغبة في السطو والإعتداء. ولكن ذلك كان موجهًا إلى والده وعمه من بعده. ثم عم كل ترق وكل حب من خلال هذه المفاهيم الطفلية. وبذلك توقع من حب رئيسه له أن يكون مزيجًا من كره ورغبة في الإعتداء عليه.

إن ذلك التعميم الذي لم يتجاوزه مفهوم الحب لدى هذا الشاب صغيرًا، كان عدته في موقفه من النجاح كبيرًا. لذلك إنقلب الحال وتشابكت أطراف الموقفين فأصبح السبب مسببًا، والمرغوب مكروهًا. إن دور الطفولة في مرض التفكير لدى المصابين خطير. فمفاهيم الطفولة الصبيانية تبقى على حالها تصوغ العالم بعد ذلك في الشباب حسب تلخيصها للأمور. ويعالج الشاب تلك المواقف معالجته للمواقف الطفلية السابقة، فنجد أن تداخل الطفولة والشباب معًا من خلال مفهوم تعميمي يعطي تلك الصورة المركبة.

طبيعة المفاهيم في المرض النفسي:

لنوجز الأمر إذن فيا يختص بإستعمال المفاهيم في المرض النفسي... يتميز التفكير لدى المريض النفسي بسيادة المفاهيم التعميمية فيه وبقائها عند هذا المستوى. وينشأ عن سيادة هذا النوع من المفاهيم على التفكير أن تصبح قدرة الشخص على إدراك المواقف الجديدة محدودة ولا تخرج عن إمكانيات مفاهيمه التعميمية في كشف إختلاف تلك المواقف عن غيرها. وما أشبه مريض النفس بشخص يقول بأن لديه «عقدة» من النساء منذ أن هجرته حبيبته مع آخر: فهذا «المعقد» إنما يرى جميع النساء على شاكلة حبيبته التي خانته، ولا يستطيع أن يكتشف في غيرها من النساء من هن على وفاء وحب.

وقبل أن ننتقل إلى الفكرة الثانية، يجب أن نجيب على سؤال عارض: هل السلوك المركب هو نتيجة لإستعمال مفاهيم تعميمية، أم أن ما خرجنا به من تحليل إستعمالها لدى المصابين أمر مستقل؟ الواقع أن الصورة المركبة من سلوك العصابي نتيجة مباشرة لإستعمال مفهوم عام في موقف خاص، فمريضنا قد عامل رئيسه بوصفه عمه فباشر مع الرئيس ما باشره سابقًا مع العم، ولولا ذلك لأصبح سلوكه على غير ذلك دون شك. فموقفه من رئيسه لا يستدعي إتخاذ موقفه من عمه لولا ذلك المفهوم المعمم المشترك، ولولا التعطل الذي أصاب مفهوم الحب والتفوق فأصبح الحصول على الترقية يستدعي الحرمان الذي إرتضاه الشاب لنفسه يوم أنب نفسه على رغبته في أن يعتدي على عمه.

الميل إلى بشكل الموقف ومضمونه في المرض النفسي:

ماذا يكون الأمر بالنسبة إلى الميل للتعامل مع الشكل ومع المضمون، في المرض النفسي؟

لو حللنا حالة هذا الشاب من حيث شكلها ومضمونها، ماذا سنجد لنفهم تفكير المريض النفسي.

إن العناصر التي تكون شكل الموقف النفسي الذي أدى مباشرة إلى ظهور أعراض هذا الشاب لا تخرج عن كونها تحقيقًا لرغبته

الملحة في التفوق والوصول إلى أعلى منصب حيث لا يكون له رئيس، والواقع أنه لم يصل إلى ذلك تمامًا، بل شارف هذا الحد وأخذت نفسه تحدثه بإقتراب المأمول. إننا إزاء موقف شكله النجاح ولكن صورة هذا الموقف في الصغر، والتي جعلت منه نسخة قريبة منها على نقيض هذا في شكلها فالموقف الطفلي هو إحباط لرغبة ملحة في الحصول على المكانة المرموقة من العم التي تشبه وراثته في ماله.

أما من حيث المضمون فنجد أن مضمون الموقف المباشر للمرض هو نزعة في الإعتداء على مركز ولي نعمته وهو مديره الذي رفعه وكاد أن يورثه منصبه. فإذا عدنا إلى الموقف الطفلي فنجد الرفض من العم أن يحصل هذا الطفل على بعض ما لديه أو ما يستطيع منحه. نحن إذن إزاء موقف مباشر مضمونه العدوان، وموقف أولى مضمونه الوقوع ضحية العدوان.

ولو عدنا قليلًا إلى الجزء السابق الذي بنا فيه ما حدث لهذا الطفل عندما إستهدف إلى إنكار عمه له، فسنجد أن وقوعه ضحية لرفض عمه أدى في بداية الأمر إلى إثارة غضبه ورغبته العدوانية الشديدة تجاه العم. ولكنه لتعيين نفسه بعمه كبت ذلك النازع العدواني خشية وقوع مثيل له عليه ولتأنيب نفسه على تلك النوازع المدمرة تجاه العم. وقد أدى هذا الكبت إلى أن إختفى مضمون

العدوان ليحل محله شعور بالذنب تحول تدريجيًا إلى النسيان والإختفاء عن الشعور. وتعد تلك النقطة أهم ما يحدث في المرض النفسي، فكبت النوازع في الطفولة لا يعني أنها ولت وذهبت، بل يعني أنها إختفت عن الشعور حتى لا تؤلم النفس ولكنها تظل تتحين الفرص لتعود من جديد إلى الشعور. وفي هذه الحالة تعاود الشخص مشاعر الألم والقلق من جديد حتى يعاود كبتها. إن ما يحدث عندما تكبت الرغبات الطفلية المؤلمة هو تحولها إلى مضامين تغزوا مواقف تالية تحاول أن تجد فيها منفذًا وتحقيقًا.

لقد كبتت إذن تلك الرغبات العدوانية في مضمونها، ثم أخذت سبيلها في الموقف الجديد تريد أن تتحقق من خلاله. وهكذا وقع المريض فريسة لآلام بالشعور بالذنب والقلق من أن يجازيه مديره على رغبته في إقصائه بالحرمان الذي لاقاه من عمه، وإكتأب لتلك النفس الشريرة التي تقمّصته. وأنب نفسه كما لو كان هو العم أو المدير المؤنب.

نحن إذن بإزاء موقف مباشر لا يحمل شكل الموقف الطفلي إلا في قابليته لأن يفسح المجال للمضمون الطفلي المكبوت أن ينفذ من خلاله. بذلك حصل الموقف المباشر على مضمون غير مباشر مستمد من موقف سابق بعبارة أخرى لا يحمل الموقف المباشر المؤدي إلى المرض مضمونه الحقيقي، بل إنه يحمل مضمون موقف

آخر له بعض ملامح شوهها كبت أصاب تطور المفاهيم في فترة سابقة. لذلك يبدو السلوك مركبًا.

موقف جديد يحمل لنا مضمونًا واضحًا ولكنه يحمل لمن يعيشه مضمونًا آخر لا نميزه.

موقف يؤدى شكله إلى مضمون مباشر، ورغم ذلك نجد مضمونًا آخر أكثر بدائية يطرد ذلك المباشر ليحتل مكانه.

ولا شك أننا هنا بإزاء نقطة مهمة وهي شكل الموقف المباشر وعلاقته بالموقف السابق صاحب المضمون الذي يؤدي إلى السلوك المركب. الواقع أن الموقفين يتشابهان في بدايتهما فقط. فالموقف الطفلي بداية الرغبة كما أن الموقف المباشر بداية رغبة مشابهة. أما نهاية الموقفين فتختلف في شكلها. فموقف الطفولة ينتهي إلى إحباط الرغبة بينما الموقف المباشر يؤدى إلى تحقيقها لذلك نجد أن مشكلة الميل إلى التعامل مع الشكل والمضمون في العصاب تختلف بل تنحرف عن محورها.

إن الميل إلى الشكل أو إلى المضمون أمر يستحيل على المناقشة في العصاب، بل إن المحور الذي تدور حوله المشكلة هو الإنتقال من شكل إلى آخر يربط بينهما مضمون واحد، ويمكن أن نصور الأمر على هذا النحو.

إن عناصر الشبه في الموقفين تسمح للمضمون القديم أن يشترك بينهما ليعطيهما معنى واحدًا. والمصاب ليس إلا معالجة شكل جديد بمضمون لشكل آخر له به ملامح وقوة جذب خاصة. لذلك يصبح السلوك عصابيًا عندما يفتقر الموقف الجديد إلى مضمون ما خاص به، أو يفقده تحت وطأة الصدمة، ويغدو الإنتقال من شكل إلى آخر أمرًا سهلًا.

ولكي نضرب لذلك مثلًا أبسط وأوضح نعرض الحالة التالية.

طفل في حوالي سن الخامسة، سيطر عليه خوف شديد من أن حصانًا سيعضه وقبل أن تستحوذ عليه تلك الفكرة بعدة أيام رأى في الحلم أن أمه قد تركته، فصحا من نومه مذعورًا لأنه لن يجد من يداعبه. وقد أظهر هذا الطفل في سن الثالثة إهتمامًا ملحوظًا بأعضائه التناسلية الذكرية وأخذ يسأل كل من حوله عما إذا كانت لديهم هم الآخرون أعضاء مثيلة. ووصل إلى نتيجة هامة وهي أن الكائنات الحية لا بد وأن تكون لها أعضاء تناسلية بينما الجمادات كالأثاث لا تتحصل على تلك الخاصية الحيوانية. ثم يتحول إلى نتيجة جديدة وهي أنه كلما كبر حجم الشخص أو الحيوان كلما كان عضوه التناسلي كبيرًا مثله. حتى أنه قال يومًا إن أمه لا بد وأن لها عضواً كذلك الذى للحصان، والواقع أننا هنا بإزاء مفاهيم ما زالت في طور التعميم الذي يسمح للأمراض النفسية بالظهور.

وخلال شغفه بإكتشافاته تلك ولدت له أخت صغيرة ولاحظ طفلنا أن أخته لم تحصل على عضو كالذي وهبته له الطبيعة، ولكنه عندما أبدى سخريته منها قال بإنها مسكينة لأنها تفتقد الأسنان. لو نظرنا إذن في تلك السلسلة من الأفكار لوجدناها تأخذ هذه الصورة.

عضو تناسلي صغير= فم بدون أسنان

عضو تناسلي كبير= فم به أسنان تعض

حصان له عضو كبير= حصان يعضه

ولكن ما دخل الأم وذلك الحلم الذي مهد لظهور الخوف من الحصان؟ الواقع أن هذا الخوف فاجأه يومًا وهو في نزهة في الطريق مع مربيته. وألح عليها في فزع أن تعود به إلى المنزل حيث كانت الأم. وحبها ومداعباتها، وغيرته من أن تكون أخته تحظى بتلك النعم التي حرم منها. ولكن مشاعر أخرى مناقضة إجتاحته تتلخص في شعوره بالخجل من رغبته تلك وشعور بالذنب من أنه يريد أن يحرم الآخرين من أمه ليستحوذ عليها لنفسه. لذلك أدى تداخل المشاعر المتناقضة وإنتصار الرغبات المضادة إنتصارًا جزئيًا– أدى ذلك إلى أن إنقلبت قبلة أمه إلى عضة من أمه تأنيبًا له على رغباته ولكن مثل ذلك الأمر غير محتمل، في الوقت نفسه الذي يمكن فيه أن يجد هذا المضمون المقلوب منفذًا في شكل آخر وهو الحصان الذي له

بالأم شبه معقود سابقًا. لذلك تحول الخوف إلى الحصان. من ذلك يمكن أن نجد أن سلسلة أخرى من التضايف قد إنعقدت وهي:

رغبة في قبلة من الأم تنقلب إلى خوف من عضة من الأم.

عضة من الأم ممكن تحويلها إلى عضة من الحصان:

والواقع أن العامل الأساسي وراء كل تلك التحولات هو خوف من الأب الذي له وحده حق تقبيل الأم والتطلع إلى جسدها الذي أثار اهتمام الطفل.

نحن إزاء ميل إلى الإنتقال من شكل إلى آخر بمضمون أحدهما. ودائمًا ما يكون هذا المضمون خاصًا بالشكل الأسبق الذي أثاره لدى الشخص نوازع مضادة أدت إلى كبت بعض المشاعر الخطيرة .

إذن فإن المرض النفسي عبارة عن إستعمال لمفاهيم تعميمية لم تصل بعد إلى مستوى التخصيص، وأن استعمال مضمون واحد لشكلين متشابهين يسهل الإنتقال بينهما بنفس المضمون، فهل معنى هذا أن المرض النفسي تفكير لا يحمل مضمونًا، أم أنه مجرد تمسك بالأشكال دون المضامين؟

الواقع أننا في حديثنا عن الإنتقال من شكل إلى آخر بمضمون شكل الموقف الأول وضعنا أمامنا أهمية المضمون واضحة،

فمضـمون قلق هـذا الشـاب المـريض هـو قلـق مـن أن تتحقـق رغبتـه العدوانيـة تجاه مـن يحـب وهـو مـديره، كما أن مضـمون خـوف طفلنا هو قلـب الرغبـة في القبلة إلى نقيضـها وطـرح ذلك الفعل المخيـف على حيوان دون الأم حتى يمكنه أن يعيش مع أمه دون خوف. نحن إذن مجبـرون علـى الحـديث عـن قابليـة الطفـل فـي مواقفـه القديمـة للإنتقـال مـن الشـكل إلـى مضـمون الموقـف. بعبـارة أخـرى، مـا دام المرض النفسي يتكون من الطفولة المبكرة ثم يمتد إلى الرشد فلا محل للكلام عن موقف في الرشد يؤدي إلى خلل في التفكير. بل الأصـوب أن ننظـر إلـى خلـل التفكيـر فـي الموقـف الأول. ففحـص قابلية الطفل للإنتقال من شكل الموقف إلى مضمونه. فإذا إكتمل لنا تحليـل هـذا الموقـف أصـبح مـن السـهل أن نفهـم بعمـق أكبـر كيـف يكون حاله عندما ينتقل بمضمون الموقف الطفلي إلى شكل الموقف الجديد.

الانتقال من الشكل إلى المضمون في المرض النفسي:

لنتنـاول موقـف ذلـك الطفـل الـذي خـاف الحصـان أن يعضـه. مـا هـو الموقـف المباشـر الـذي عاشـه مـن حيـث شـكله ومـن حيـث مضـمونه؟ وكيـف كانـت قدرتـه علـى الإنتقـال مـن الشـكل إلـى المضمون؟

لنحلل الموقف أولًا من حيث الشكل. كان هذا الطفل هو الوحيد بالنسبة إلى والديه. وظل كذلك حتى تلك السنين التي بدأ يهتم فيه بعلامة جنسية وإختلافها عن علامات الجنس الآخر. ولما ولدت له أخته وبدأت تشاركه في حب أمه له ثارت في نفسه الغيرة. ونعني بالغيرة رغبته في أن يحل محل الأخت. والواقع أن هذا الشعور شعور مرير بالنسبة إلى الطفل لأن عليه أن يفاضل بين أن يتمتع بميزات كبيرة مضحيًا بميزات الصغر أو بالعكس. وفي مفاضلته هذه– وهي عادة تتم دون أن يعمل فيها فكره تمامًا بل دون أن يعي قدرًا كبيرًا منها يحاول أن يقيم تجاه كل رغبة تلك الرغبة المضادة لها حتى يأمن سرعة الحكم، فمثلًا شعوره بالميزات التي تتمتع بها أخته نتيجة لعجزها ورغبته في أن يحظى بما تحظى هي به، يجعله يقيم تجاه ذلك شعورًا بميزات إستقلاله وذكورته وقدرته. كما أن ملاحظته لإفتقاد أخته الأسنانها مما يبرر للأم إطعامها عن طريق الثدي يجعله يقيم للأسنان أهمية بالغة ويفخر بحصوله على ما يغنيه عن أمه. وتتصارع تلك القوى المتعارضة في نفسه لتجعل الموقف صراعًا بين رغبة ونقيضها وبين حاجات ورفضها. وكانت تلك الرغبات في الواقع لدى هذا الطفل من تلك الطبيعة، رغبات متصارعة. فالموقف من حيث شكله له صفة الصراع، وله صفة القوى المتوازنة إذا جذبته يمينًا سرعان ما سيحدث رد الفعل

لينجذب يسارًا. إن أبسط تحليل لهذا الموقف يمكن توضيحه بالرسم التالي:

موقف الطفولة	↓	الطفل	↑	موقف الكبر
	رغبة يرضى عنها		رغبة يرضى عنها	
	رغبة لا يرضى عنها		رغبة لا يرضى عنها	
	↓		↑	

إن هناك عديدًا من القوى المتعادلة والمتنافرة التي تجمد سلوك الطفل فلا يستطيع أن يتحرك إلى الطفولة أو إلى الكبر.

لننظر الآن إلى مضمون الموقف. كان مضمون الموقف لهذا الطفل ظاهريًا يتصل مباشرة بموقف الصراع ذاته. هل يحتفظ بميزات كبره وجنسه مضحيًا بميزات صغر أخته وطبيعة جنسها، أم يرجح الجانب الآخر؟ وقد دفعه شكل الموقف الصراعي إلى أن يجعل لكل جانب مجموعة من الخواص. فالصغر يعني الحب والقبلة والمداعبة والحصول على الأم دون منازع، كما يعني فقدان الرجولة والإستقلال والحصول على إستقلال الأب الذي بدأ الطفل يعجب به. وكان الكبر على نقيض ذلك. وأدى ظهور هذه المفاهيم و تلك المضامين في نطاق الشكل الصراعى الذي كان عليه الموقف إلى أن أصبح الإنتقال من حالة إلى أخرى يعني التضحية. وتحول الموقف

بحيث أصبح حل الصراع يعني التخلي عن مجموعة من الرغبات المراد تحقيقها، كما كان يؤدي إلى التمسك بغيرها بما في تحقيقها من حرمان. وغدا الشكل وقد أصبح له مضمون صراعي هو الآخر بحيث جعل الأمر معقدًا للطفل. وهنا يمكن أن نتوقف قليلًا عن تحليل – مضمون الموقف لنكتشف خاصية مهمة في المواقف التي تؤدي إلى العصاب.

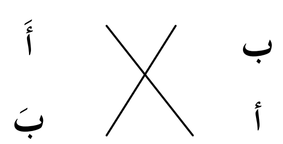
إن المواقف التي تؤدي إلى العصاب والمرض النفسي مواقف صراعية بطبيعتها تتنازع الفرد فيها قوى متعارضة. وحتى لا يقضي الشخص بأمر حاسم بصددها يستعين على مجموعة من الرغبات بالرغبات الأخرى ليبقي عليها حية نشيطة دون أن يفقد أيًا منها. ويصبح عليه أن يستعين بمضمون جانب ليخلق به الشكل المضاد بينما يجعل للشكل المناقض مضمون الشكل الآخر للموقف وفي طفلنا هذا يتمثل له موقف يجعل للشكل المناقض مضمون الشكل الآخر للموقف. فموقف الصغر شكلًا مناقضًا لموقف الكبر ولكنه يستعير للأول مضمون الآخر. ونتيجة لذلك يظهر الوجدان المؤلم والإنفعال الصاخب. فتحقيقق رغبته في القبلة تنقلب إلى الحصول على عضة، ورغبته في الإستقلال والخروج مع مربيته ينقلب إلى ألم ليعود أمه. إن مضمون كل موقف هو في الواقع مضمون مستعار من

الموقف المضاد، وهكذا تنقلب الآية فيصبح إشباع أي رغبة مؤديًا إلى ألم بدلًا من الحصول على لذة.

إلا أن الموقف الصراعي بما فيه من ألم مستمر يضيق به الفرد فيدفعه إلى إيجاد حلول له ينتهي بها منه. أنه يبقى الموقف الصراعي لفترة حتى يكتشف الحل. وفي مثالنا هذا نجد أن عناصر الموقف الصراعي لن تنتهي لدى الطفل إلا بكبت إحدى النزعات وإبقاء الأخرى، على أساس قانون إقتصادى بحت، فالرغبة التي تؤدي إلى أكبر قدر من الألم هي الأجدر بالكبت والإبعاد. ولكننا تبينا في الموقف الصراعي أن كل رغبة تحمل شكلًا خاصًا ومضمون الرغبة الأخرى، مما يجعل كبت إحداها يعد كبتًا للأخرى. وحتى نبين ذلك من مثالنا السابق تصوره بهذا الشكل.

شكل الرغبة	مضمون الرغبة
أ- رغبه في الحب (الصغر).	أَ- القبلة والحصول على ميزات الاعتماد.
ب- رغبة في الاستقلال (الكبر).	بَ- رفض القبلة والحصول على ميزات

ثم تغير الوضع ليشكل الموقف الصراعي على هذا النحو:



من هذا نجد أن كبت أ يعني إبقاء ب مع أَ، كما أن كبت ب يعني إبقاء أ مع بَ.

لذلك يؤدي الكبت إلى ذلك المركب السلوكي المعقد الذي وصفناه فيا سبق بأنه سلوك غير مفهوم. ورغم أن ذلك السلوك المعقد يؤدي بالشخص إلى المرض النفسي وما به من ألم وشقاء إلا أنه في الواقع ترضية وحل وسط لمشكلة الرغبات المتصارعة وعدم التخلي عنها جميعًا. إن الحل السوي للموقف الصراعي يتمثل في تعطيل الشخص مرحلة إنتقال مضمون رغبة إلى مكان الأخرى حتى يمكنه أن يعالج كل واحدة معالجة مستقلة، ومثل ذلك التعطل يؤدي إلى ما يسمى بالكبت الناجح لأنه سيلغى من الموقف رغبة لها شكل خاص مع مضمونها الخاص ليبقى الأخرى بمضمونها. وعادة بل ودائمًا ما لا يتأتى لنا ذلك إن لم تكن قدرتنا على إنماء المفاهيم قد تطورت حتى تخصص و تعمم بدلًا من أن نعمم فقط. فالتعميم في الفهم يتيح للمضامين المتعارضة أن تتبادل وتحمل في الأشكال المختلفة. وإذا أتيح لنا أن نستعمل مفاهيم تخصيصية تعميمية فإننا لن نقع في عملية الإبدال، بل سنوازن الموقف لنكبت إحدى الرغبتين دون مساس بالأخرى، وعادة ما يتمشى إختيار الرغبة المكبوتة بناء على تقديرنا للواقع والظروف الإجتماعية التي تغرينا بالتخلي عن الرغبات البدائية والأكثر فجاجة.

الوجدان في المرض النفسي:

فيما سبق قلنا إن هناك تداخلًا بين مواقف الطفولة وبين مواقف الرشد مما يجعل سلوك المريض مركبًا وتفكيره غير مفهوم. والسؤال المباشر نتيجة لهذا الوضع هو: لماذا لا يستقل الشكل الجديد بمضمونه الخاص بدلًا من أن يحصل على مضمونه من موقف طفلي له نفس الشكل تقريبًا؟

لنعد مرة أخرى إلى موضوع الوجدان والتفكير فنترسم ما فيه من نقاط تفيدنا في الأجابة.

لقد أوضحنا أن التفكير يمنع الوجدان من أن يتسرب إلى أحكامنا على عالمنا. وقلنا إن الوجدان السوي هو الذي يتصل بشكل ومضمون الموقف. أما الوجدان المفسد للتفكير فهو لا ينسجم مع شكل له مضمون يناسبه. هذه النقاط تسمح لنا بفهم تلك الصلة وذلك التدخل الذي قد ينشأ بين مواقف الطفولة والرشد فيعطينا صيغة المرض النفسي.

نضيف إلى ما سبق أمرًا آخر كشف عنه التحليل النفسي. إن الإنسان منذ نشأته يتضمن إتجاهين نفسيين واضحين تتصارعان فيه فتكتب لأحدهما الغلبة يومًا ويومًا تكون للأخرى. فعندما يرضى الإنسان عن عالمه ويجد فيه إشباعًا لرغباته يتغلب إتجاه الحب

والرضى. ويؤدي ذلك إلى أن يدفع الإنسان إلى من أشبعه وما أشبعه طاقة من حبه الذاتي. أما إذا لقى الإنسان إحباطًا وحرمانًا فإنه يعطل الحب ليتغلب الكره والبغض والعدوان يتجه بهم إلى من حرمه وما حرمه. لذلك نجد أن إنفعالاتنا هي تفرعات من الحب والعدوان. فمن الحب تظهر إنفعالات الراحة والإطمئنان والمودة والميل، ومن العدوان يخرج الضيق والشك والكره والنفور.

تلك الخاصية التي تميز وجداناتنا تلعب دورًا هامًا في المرض النفسي والمرض العقلي. ففي الطفولة وقبل أن يتمكن التفكير من إقامة علاقتنا الرمزية بالعالم وأن يجعلنا نتعامل مع الشكل والمضمون يقوم الوجدان بدور أساسي بديلًا عن التفكير. فالمواقف التي يتعرض لها الطفل تكون إما محبطة أو مشبعة ولا يستطيع الطفل أن يدرك تفاصيل المواقف نظرًا لعدم نماء تفكيره الرمزي لدلك يحل الوجدان في شكل الموقف ليعطيه مضمونًا.. فالوجدانات هي مضامين أشكال المواقف الطفلية. والسبب في ذلك أن الطفل عندما لا يجد معنى لما يراه أو يخبره ويتعرض له فإنه يفسر الأمور بحسب ما تحمله له من حب أو عدوان بل إننا وفي أحسن ظروف تفكيرنا وإستخلاصنا للمضامين في البلوغ نظل ندرك المواقف بما تحمله لنا من إشباع أو حرمان.

من ذلك يمكن أن نستنتج – وهو ما تحقق في محاولات العلاج التحليلي– أن السلوك المركب الذي نطلق عليه لفظ المرض النفسي «العصاب» إنما ينتج من تداخل موقفين على شبه بعض يحمل الأول مضمونًا وجدانيًا يدخل إلى الموقف الجديد. بعبارة ثانية. إن ما يجعل الموقف الجديد لا يستقل بمضمونه الخاص ويحمل المضمون الطفلي هو الوجدان الذي لم يسمح للطفل أن يفكر في الموقف الذي تعرض له.

نقطة أخرى تنقصنا لنجيب عن سؤالنا. في أحيان كثيرة لا يتحمل الطفل أن يشعر بالحب خالصًا أو بالكره خالصًا تجاه موقف يتعرض له. ويعود السبب في ذلك إلى أن الموضوع الذي يتعلق به قد يحمل من الصفات ما يثير التناقض في مشاعره فالأب للطفل إنسان يحبه ويقدره ولكنه في نفس الوقت يمنعه عن بعض الرغبات ويخافه مما يثير فيه نوازع كراهية. من ذلك تنبع لدى الطفل مجموعة من الوجدانات المزيجة التي تحمل الحب والكره معًا. وليس ذلك بمستغرب في حياتنا السوية. فكثيرًا ما نحاول التعبير عن إعجابنا بشيء بكلمات السباب والقذف. بل كثيرًا ما نجد الحب والكره يمتزجان في تصوراتنا كما هو واضح من قولنا: مات في حبها، حلوة لدرجة أن تؤكل.

أثر التفكير الطفلي على المرض النفسي:

لنعيد السؤال من جديد: لماذا لا يستقل الموقف الجديد بمضمونه الخاص عند العصابيين؟ إن عدم إستقلال المواقف بمضمون متسق معها لدى هؤلاء المرضى يعود إلى أن المواقف الطفلية التي كان مضمونها وجدانًا طاغيًا شمل تفكير الطفل كله بأسر الإنسان فيه على مر السنين. ولذلك عندما يتعرض لمواقف مشابهة يندفع المضمون القديم إلى الموقف الجديد. يزيد على ذلك أنه في حالات العصاب والتي يكون لدى المريض فيها قدرة على التفكير باقية، يواجه الوجدان القديم وجدانًا نابعًا من حقيقة الموقف الجديد فيمتزجا ليكون صراعًا وجدانيًا يطمس معالم كل منهما ويعطينا وجدانًا مركبًا ويمكن أن نلحظ تلك الخاصية فيما يعلن الناس بإسم القلق. فالمريض قبل إستفحال مرضه يشعر بالقلق الذي يمثل صدام الوجدانات للتعارضة وبعد فترة يظهر المرض أو السلوك المركب الذي قد يأخذ صورة الحزن عند النجاح «إستبدال الشعور بنقيضه» أو الخوف من الفشل «توقع العقاب عند تحقيق الرغبات».

إن المرض النفسي أو السلوك المركب من حيث هو تفكير يسمح للوجدان أن ينفذ إلى علاقة الشخص بواقعه بصورة مركبة أيضًا. فإفتقاد الشكل إلى المضمون يسمح بوجدانيين متعارضين، أن

يمتزجا ويتداخلا ليكونا رصيد الإنسان في التعامل مع واقعه. ويؤدى ذلك الإمتزاج بين الوجدانات إلى عجز الشخص عن معاودة التفكير والقياس ليفرق بين الموقف المعاش والموقف الطفلي الذي إضطرب فيه تفكيره. وبذلك يلغي الشخص مضمون الموقف المعاش أحيانًا ليجعل ذلك المزيج المغرب من الوجدانات هو المضمون. فمريضنا الشاب وقع في حالة القلق والإكتئاب مؤخرًا، نظرًا إلى أن مفهوماته المعممة منذ الطفولة أتاحت للموقف الطفلي أن يشكل الموقف المعاش. ولكنه وقد كبت في الطفولة جانبًا من الموقف وأبقى الحب والكره في مزيج حول ذلك المزيج إلى الموقف الجديد المعارض وجعل منه مضمونه. وأصبح حب رئيسه له هو المؤدي إلى الكره والعدوان. وظل هذا الشاب يميل إلى التعامل مع الشكل الجديد وحده دون أن يسعى إلى كشف مضمونه الخاص– وأصبح القلق هو مضمون ذلك الشكل. وبذلك إستحال عليه أن يتعامل مع الشكل ومضمونه. بل وإفتقد القدرة على الإنتقال من الشكل إلى مضمونه الحقيقي نظرًا إلى تسرب الوجدان المركب إلى الموقف مما جعل السلوك بدوره على هذا النحو من التركيب.

تفكير المريض وتفكير السوي

الفرق إذن بين السواء والمرض هو فرق في إستقلال الشكل بمضمونه المناسب بوجدانه الحقيقي. فذلك الشاب بعد سوائه وشقائه أمكنه أن يسعد بترقيته وأن يعود إلى سابق المودة مع رئيسه ويبادله الحب والتقدير؛ أي أنه إحتفظ بشكل الموقف المعاش بمضمونه المباشر وهو الترقية وأضفى على الموقف بشكله ومضمونه معًا وجدانًا مناسبًا وهو الحب والمودة وسعد بالحب والمودة.

لقد تعرضنا لفكرة التداخل بين الوجدانات المركبة والمواقف المركبة، فكيف لنا إذن أن نميز الأمراض النفسية العصابية حسب تلك الفكرة، بعبارة أخرى هل هناك أنماطًا من ذلك التداخل وذلك التركيب تميز لنا أنواعًا متباينة من المرض العصابي؟

لقد قسمنا المواقف إلى طفلية يحدث فيها إفتقاد الشكل إلى مضمونه الحقيقي وقسمنا الوجدانات إلى حب وكره وعدوان. وقلنا إن إمتزاجا بين المواقف قد يحدث بناء على التشابه بين الأشكال دون المضمونات نظرًا لتعطل نمو مفاهيم التخصص. وقلنا بأن إمتزاجا قد يحدث بين وجدانات الحب والكره بسبب عدم حصول الشخص على حب مقابل لما يمنحه أو خوفه من أن يرتد كره مقابل

لما يوجهه. ثم تعرضنا لإنتقال الوجدان ليصبح مضمون المواقف الجديدة المعاشة. ويمكننا أن نشاهد الإحتمالات المختلفة لتركيب تلك العناصر لتعطينا صورتين مرضيتين عامتين إحداهما تتفرع إلى فرعين.

أنماط المرض النفسي:

الاحتمال الأول وهو أقربها إلى ملاحظتنا وأكثرها تواردًا في المجتمع وهو الخاص بحلول وجدان مركب من الحب والكره كمضمون لموقف مركب من شكلين إختفي مضمونهما الأصلي. ويطلق على هذا النوع من المرض لفظ الهستيريا. وتنقسم الهستيريا إلى فرعين الأول هو المخافات المرضية الهستيرية والآخر هو الهستيريا التحولية. وقد ضربنا مثلًا بالمخافات المرضية الهستيرية بحالة الطفل الذي نمى لديه خوف من أن يعضه حصان. ويمكن أن نصف إضطراب التفكير في هذه الحالات بالمضمون الخاص بالموقف الطفلي المبكر الذي أصبح يتضمن وجدانًا مركبًا من الحب والكره تجاه موضوع ما ظل كما هو رصيد مواقف تالية معاشة بينما تغير شكل الموقف السابق عما في الموقف المعاش. فالقلق تجاه الأم وهو مزيج من حب وكره دفع الطفل إلى ربطه

كمضمون بموقفه من الحصان. بعبارة أخرى المخافات المرضية الهستيرية تتم عن طريق مركب وجداني يتحول عن موضوعه الأصلي إلى آخر يسمح بأن يستغل لإشباع ذلك المركب الوجداني.

أما في الهستيريا التحولية فنجد أن الأمر على غير ذلك، فالذي يتغير هو الوجدان المركب أما الموقف فيبقى كما هو. ويكاد موقف الشاب أن يبرز لنا ذلك الجانب بوضوح. فالموقف المركب خاص بتطلعه للحلول محل آخر مما يؤتيه بالسعادة. ولكنها ونتيجة للعملية النفسية التي سبق إيضاحها تحولت السعادة إلى شقاء ولتصبح وجدان الموقف المعاش الشبيه بالسابق الطفلي. بعبارة أخرى تبقى عناصر الموقف على ما كانت عليه ويتغير المضمون الإنفعالي المركب، وعادة ما يصبح جسد المريض في هذه الحالات ميدانًا لصراعه وسلوكه المركب. فبعض حالات الشلل لأعضاء الجسم أو ما يطرأ على وظيفة تلك الأعضاء تدل على أن الصراع قد حل بها ليعبر عن نفسه. فذلك الشخص إذا أحس بظلم شديد يقع عليه إنشل ذراعه، يشير إلى أن رغبته في رد العدوان بمثله – والتي تؤتيه ألمًا نفسيًا قد تعطلت. وعادة ما تكون تلك الصراعات الهستيرية التحولية والمخافات المرضية الهستيرية نتيجة لتطلعات جنسية طفلية يحرمها الطفل على نفسه لينشأ الموقف الصراعي. لذلك تعود الأمراض الهستيرية عامة إلى المرحلة التي تسمى بالمرحلة الأوديبية

وتتميـز تلـك المرحلـة «مـن سـن ٣– ٦» بظهـور ميـل كـل جـنس لإكتساب صفات جنسه الذكري أو الأنثوي.

أما الإحتمال الثاني، وهو أقل تواردًا وأندر حدوثًا، فهو إحتمال يحدث في المرحلة التي تسبق مرحلة الأوديب. وتتميز تلك المرحلة بعـدم أمكـان إمتـزاج الوجـدانات. فكـل وجـدان فـي تلـك المرحلـة (سن٢– ٣) يطغي منفردًا على علاقة الشخص بواقعه حسب حالة تلك العلاقة. فإذا رضى الطفل عمن يتعامل معهم أحبهم حبًا مفرطًا حتى تسوء تلك العلاقة فيختفي الحب دفعة واحدة ليظهر الكره والعدوان وكأن لم يكن هناك حب إطلاقًا، لذلك تتميز صراعات هذه المرحلة وإحتمالات إضطراب التفكير فيها بالحدة والشدة. بل لقد أطلق على عصاب تلك المرحلة اسمًا هو في الحقيقة وصف لها. فالوجدان الذي يسيطر على الطفل في تلك المرحلة وعلى المريض فيما بعد يستحوذ عليه ويمتلكه إمتلاكًا، ولذلك يطلق على عصاب تلك المرحلة إسم الحواز، أو الحواز القهري. وفي هذا العصاب نجد أن كل سلوك يمتلك وجدانًا خاصًا ولكنه لا يدوم إذ لا بد وأن ينتهي ليحل محله سلوك آخر بوجدانه. وفي تلك الدورة المزدوجة معًا تتكون صورة المرض فالعصابي الذي تحوزه فكرة بأنه متسخ اليدين يتجه إلى غسلها. وبعد غسلها ضرورة لإلغاء القذارة وسبيلًا إلى إتساخها من جديد. والواقع أن لذلك الإنفصال في الوجدان

وعدم قابلية الوجدانات إلى الإمتزاج يرتبط بإستحالة ربط الشخص بين شكل ومضمون موقفيه المتتاليين ليدرك أنهما موقف واحد. فالحب الشديد الذي يتلوه كره شديد إنما يكونا تلك الوحدة التي نراها في الهستيريا في إنفعال واحد وهو القلق. أما في الحواز فكل على حدة يحول دون إدراك الشخص أن هناك مضمونًا واحدًا يمكنه أن يجمع شكلى الموقفين المتعاقبين ليصبحا كيانًا لرغبة معينة. ويمكن أن نضرب لذلك مثالًا بصراف إحدى الشركات إستحوذت عليه فكرة مؤداها أنه يخطىء في عد ما يحصله من نقود. وأصبح يكرر العملية بصورة لم يعد يحتملها عقليًا ولم يعد يستطيع منها القيام بعمله على الوجه الضروري. فإذا إكتشفنا أن لديه رغبة يقاومها في سرقة بعض هذا المال لنفسه، أمكننا أن نكشف، طبيعة التفكير في عصاب الجواز – إن وجداني العدوان على مال صاحب العمل منفصل عن وجدان الإخلاص لهذا الرجل. وقد أدى ذلك الإنفصال إلى إنفصال آخر من عملية عد النقود بوصفها تمثيلًا للإخلاص وعملية الشك في سلامة العدد التي تمثل الشعور بأن السرقة قد تمت فعلًا من ذلك نجد أن الموقف الأول بشكله مع الموقف الثاني بشكله يحملان مضمونًا – واحدًا وهو «أنا لا أرغب في السرقة». ولم يمكن لهذا المضمون أن يجمع الشكلين منعًا لإنفصال الوجدانين الخاصين بهما.

التفكير عند المرضى العقليين «الذهانيين»

لقد لاحظنا أن المرض النفسي «العصاب» إنما ينتج من سيادة قدر معين من الوجدانات المركبة على التفكير. ولاحظنا كذلك أن العصاب لا يفقد المريض كل عقله بل يورده إلى حدود الجنون دون الدفع به كلية في هاويته. ولنا أن نتساءل: هل الجنون إذا – أو يسميه المتخصصون ذهانًا – نتيجة سيطرة أقوى للوجدانات على التفكير بحيث تفقد المريض كل عقله وتورده هاوية الجنون؟

من اليسير أن نعتبر الإجابة على هذا السؤال أمرا لا مبرر له لأنه إذا كان قدرًا معينًا من الوجدان يفسد التفكير فإن ذهاب العقل لابد وأن ينتج عن قدر أكبر من الوجدان. ولكننا إذا تذكرنا ما سبق بخصوص علاقة الوجدان بالتفكير لتحفظنا قليلًا في هذا الحكم. لقد لاحظنا أن المرض النفسي والعقلي ليسا لسيادة الوجدان على التفكير بل لتداخل الوجدانات المركبة فيه. لذلك يحسن أن نعتبر المرض العقلي «الذهان» نتيجة لتدخل وجدانات أكثر شذوذًا وأشد غرابة وأعقد تركيبًا من تلك التي نجدها في العصاب ولا بد إذا أردنا أن نكشف خصائص التفكير لدى الذهانيين من أن نتعرض لطبيعة الرغبات التي تثير تلك الوجدانات الشاذة والغريبة التي تذهب بالعقل وتدمر التفكير.

عندما تعرضنا للتطور لاحظنا أن مطالب الطفل وحاجاته تكون في البداية بسيطة هي الشبع بعد الجوع ، ثم تتعدد فتضعف مع تمايزها وكثرتها ولا شك أن إحباط رغبة تكون وحيدة لدى الطفل أشد خطرًا من إحباط رغبة من بين رغبات أخرى تؤتيه إشباعًا معوضًا. لذلك يمكن أن نعتبر الرغبات التي يؤدى إحباطها إلى الذهان إنها تلك التي نشأت مبكرًا في حياة الطفل.

بالأضافة إلى ذلك سنتعرض لأمر آخر يتصل بتلك الرغبات المبكرة، هو طبيعة شعور الطفل برغبته في بداية عمره.. لننظر

إلى طفل في سن السنة متعلق بمربيته يقضي بين ذراعيها معظم يومه لننظر إليه وهو يشاهدها تتألم من إهانة لحقتها أو ضرر نالها. سنجد أن الطفل بمجرد أن تبكي مربيته ينخرط هو أيضا في البكاء وكأن ألمها قد لحقه هو أيضا. هذه الخاصية تميز الأطفال بدرجات متفاوتة حتى سن الثانية أو ما بعدها بقليل. وتشير إلى أن الوليد لا يعيش عالمًا خاصًا به ورغبات ملكًا له، بل يعيش عالم من يحبهم ويتعلق بهم. فرغبات الآخرين هي رغباته وموضوعاتها هي موضوعاته ووجداناته مشاركة بينه وبينهم. ولا شك أنه عندما يتنبه مع الأيام أن ذلك غير حقيقي ويأخذ في الإستقلال بذاته تدريجيًا سيقع في حيرة. كيف يكبت رغبة يشاركه فيها من يحب دون أن يكبت أيضًا شعوره بذلك المحب.

الأمر يبدو معقدًا.. لنعد إلى طفل في صراع حول رغبته في الرضاعة وأصرار الأم على فطامه لنتحقق من صحة ما نقول. أعتاد الطفل أن يجد ذلك الثدي الرحيم المريح له كلما طلبه. وأصبحت رغبته هي الثدي كمصدر للطعام وللحب والحنان. وأقام مع أمه حبًا يعتقد أن أمه أيضًا تشعر به تجاهه. وفجأة تمنعه أمه عن الثدي ولا تلبي طلبه. وهنا يشتط في غضبه على من يحب ولا يتصور أنها نفس الشخص، إنه يحبها ويرغب فيها.

أما تلك التي تريد حرمانه فهي أم أخرى لا يرغب فيها. وبذلك يقوم بكبت واحدة منهما بكل ما يرتبط بها من رغبة ووجدان وموضوع، ويبقى على الأخرى برغبته فيها. ويعني ذلك أنه قد كبت رغبته بوجدان وموضوع وبمن يمثلها في الواقع مما يجعل الكبت في المراحل المبكرة من التطور كبتًا يقع على الأمور بواقعها المادي أيضًا أليس ذلك أخطر شأنًا من كبت يصيب رغباتنا في الواقع دون أن يلغي هذا الواقع بزمته؟

قطعًا هو أخطر وهو الذي يؤدي إلى غياب العقل كلية.

ولنبرز الأمر سنتناول بعض أعراض الجنون لنبين فيها أن الكبت يصيب إدراك المريض لواقعه بالأضافة إلى رغبته ووجدانه مما يؤدي إلى خلل شديد في التفكير. مريض يجلس أمام باب يفتح ويقفل في حركة دائمة فإذا به يرتاع فجأة ويقول إنه يخاف أن يأكله الباب. لقد

أدرك الباب وكأنه يفتح ويقفل فأنطلق وجدانه المكبوت ليشوه الواقع ويصوره تصويرًا مخيفًا ومفزعًا.

ومريض آخر يسمع أصواتًا تناديه بأن يتخلص من أمه لأنها شريرة تدبر له مؤامرة لتودي به. ثم يتبين أن تلك المشاعر التي نسبها إلى الأم هي مشاعره هو والتي كبتها منذ البداية عندما صور له خياله الطفل أن حرمانه من الثدي كان

مؤامرة ضده. ولكنه لم يعد يحتمل أن يتضمن تلك المشاعر تجاه أمه التي يحبها خيل إليه أن هناك من يناديه ويبصره بالحال ويهمس في أذنه بسر هو في حقيقته رغبته المكبوته.

ومريضة ثالثة عاشت في عزلة بعد أن تزوجت أختها الصغرى ولم يعد يؤنس وحشتها في عزلتها إلا كلب صغير ترعاه رعايتها لأختها. وفي يوم إختفى الكلب وترك المريضة. في حزن شديد وألم لا يحتمل. وتطور ألمها ليصبح تأنيبًا لنفسها على جرم إرتكبته تستحق عليه أن تطرد إلى الطريق لتعاني الجوع والتشرد. ونجد أن تلك المريضة في رعايتها لأختها ولكلبها إنما كانت تغالب كرهًا شديدًا تجاه من تضحي من أجلهم وتفني شبابها في خدمتهم ليتركوها بعد ذلك. وعندما تحقق حدسها وتركت أختها ومن بعدها كلبها أنبت نفسها على كرهها الذي كبتته والذي تصورت أنه هو الذي نفر منها من أحبوها وتصورت أن مصيرها إلى الطريق لتعاني

الجوع والتشرد نظير جرمها الذي إقترفته. ويمكن أن نلاحظ هنا أن العقاب الذي تصورته هذه المريضة له نفس الصورة التي يمكن أن يكون عليها حال كلبها.. ضالًا جائعًا شريدًا.

الواقع أن الذهان هو تعطل لكل تفكير، ولا يصل فيه التفكير إلى تلك المستويات التي تسمح للشخص أن يقيم مفاهيم ويتعامل بها. فإختفاء الواقع نتيجة للكبت المبكر للرغبات لا يتيح للمفاهيم أن تنمو وتتطور. إنه يقف بها عند مستوى عياني بحيث تستقل الأمور عن بعضها ولا تندمج في كليات وتتسرب إليها وجدانات شديدة البدائية فيتحول عالم المذهون إلى عالم غريب تتحقق فيه كل رغباته التي كبتها مما يجعله في فزع لا يسمح له بالتفكير. ومع ذلك تراه يحاول جاهدًا أن يفهم ما يدور حوله حسب قوانين غريبة لا تسمح له أن يحقق توافقًا مع العالم. إن عجزه عن تعامل يتوافق مع العالم يجعله يغير من العالم ليخلق منه مجالًا يتناسب مع إمكانياته هو..

لايكفي أن نصوغ الأمر على هذا النحو، بل يجب أن نعرف شيئًا عن تلك القوانين التي تحرمه من التوافق في ضوء خصائص التفكير السوي الثلاث. إن تعطل الذهابي عند المراحل الأولى من النمو وكبته لقدر كبير من الواقع وصراعه مع رغباته البدائية، يجعله بعيدًا عن تجريد الأمور من ماديتها. فالتجريد يعني أن الشخص قادر

على أن ينظر إلى الأمور في ذاتها. أما الذهاني فعياني في تفكيره ولا يقيمه على أسس من المفاهيم والعيانية هي في الحقيقة تعامل مع الأمور بما تحمله للذات من فائدة ومعنى خاص، وما يمكن أن يستفاد منها فائدة مباشرة. بعبارة مجملة لا يتمكن الذهاني من إقامة مفاهيم مجردة لأن مفاهيمه مثقلة بوجداناته العنيفة مما يجعلها لا تتصل بالواقع إتصالًا يتيح له أن يختبره ويفكر فيه. فالأشياء للذهاني إما أن تكون خطرة تهدده وإما أن تكون كريهة يعافها، ولا يمكن أن تكون مجرد أشياء لا تحمل معنى خاصًا له.

لذلك لا يكون لتلك المفاهيم شكل ومضمون منفصلان. فالباب الذي يفتح ويقفل لا شكل له. بل هو مضمون خطر. والكلب الضال ليس كلبًا قد هرب، بل هو ممثل لمشاعر دفينة تعاني منها سيدته. إن مضمون الأمور لدى الذهاني هو مضمون رغباته والذي يشكل له شكل العالم وتفاصيله. لذلك نجد أن الأشياء الواقعية لديه لا تحصل على شكل خاص ما دامت قابلة لأن تحمل مضمونًا واحدًا. الفم والباب شيء واحد ما داما يفتحان ويقفلان. الكلب والأخت صنوان ما داما قد تركا سيدتهما في وحدة تعاني فيها مرارة الفراق.

من هذا نجد أن مجال إنتقال الذهاني بين الشكل والمضمون ضيق إن وجد. فالشكل لديه هو المضمون والمضمون هو الشكل

وكل ما يمكن أن يحدث بصدد الإنتقال بينهما لا يخرج عن كونه إنتقالًا من رغبة الذهاني العارمة إلى الموضوع الذي إختاره ليمثل تلك الرغبة. فالذهاني الذي يدعى أنه ملك الملوك لا يبرح نطاق إعتقاده هذا إلا في حدود ضيقة تجعله يتوج رأسه بريش ملون أو أن يأخذ هيئة المتعاظم ظانًا أن ذلك التعاظم أو هذا التاج المزيف كاف لأن يحقق له رغبته في ملك الملوك.

صلة بين السواء والمرض هي الحلم

الإنسان إذًا لا يكف عن التفكير. يفكر وهو مستيقظ ويفكر وهو نائم يفكر بعالمه وهو سوى، ويفكر بوجداناته إذا كان مريضًا. والفرق بين المريض والسوي جلي واضح لنا، ولكنه فرق واه غير مميز ذلك التميز الجوهري. فالمريض يحلم كما يحلم السوي أيضًا. والسوي في حلمه يشتط في تفكيره إلى حد الجنون. أمعنى هذا أن الأسوياء يحملون في نفوسهم عناصر المرض والجنون؟ أمعنى هذا أننا عقلاء مؤقتون؟ أيدل ذلك على أن هناك صلة بين السوي والمجنون؟ أتشير الأحلام على أن الإنسان لم يتخلص تمامًا من بذور جنونه وأنها – أي أحلامه – دليل على وجود قوة قائمة تهدده أو تجذبه أثناء الليل. إلى مضارب المرض؟

نعم.. إن أحلامنا ضرب من المرض النفسي والعقلي الذي نعيشه فترة الليل حتى لا نعيشه في نهارنا فنشقى به. لا يمكن

لتفكير مهما نضح أن يشبع للإنسان كل رغباته. ولا يمكن لكبت مهما نجح أن يحكم الرقابة على نزغات طفلية بقيت تلح في الظهور. ولا يتأتى لإنسان أن يعيش في وئام تام مع عالمه مهما كان عالمه كله يسير وقدرته تفوق المعقول. لذلك تبقى لدينا جميعًا جوانب لا تجد في التفكير الرمزي سبيلًا للظهور، فتتوارى أثناء النهار حتى يدركها الليل فتجد في الحلم ووسائله الأربع في التعبير وسطًا سهلًا تفصح بها عن نفسها و تشبع حاجتها فوسائل الحلم الأربع وهي تصوير الأفكار والنقل والتكثيف والرمز لها طبيعة التفكير لدى المرضى النفسيين. ولننظر في كل واحدة على حدة لنكشف الصلة بين السراء والمرض من خلال الحلم.

أن تصوير الأفكار ونقل المجرد من الأمور إلى صور عيانيه نراه في الذهان بوضوح. فالذهاني ينقل رغبته في الإلتهام إلى العالم الخارجي فيصبح كل شيء يقفل ويفتح بديلًا للفم الذي يلتهم. ولا شك أننا إذا أردنا أن نعبر عن عالم مسعور نعيشه ما وجدنا صورة نحلم بها فتنقل تلك الفكرة بأمانة غير فتحات تطوى ما يمر بها فتخفيه وكأننا في مجال يلتهم ولا يشبع.

أما في النقل فنجد ذلك الذهان والعصاب معًا: ففي العصاب يسقط الشخص رغباته على الآخر حتى لا يتهم نفسه بأنه صاحبها. وفي الذهان وجدنا أن هناك إناسًا ربما أسقطوا مشاعرهم على

الآخرين وأبقوا تعلقهم بمضمون تلك المشاعر لأنفسهم وهذا ما نراه من حيلة النقل في الحلم حيث يحلم النائم بأن شخصًا يمنحه هدية توجب السرور ولا تنبع إلا من محب بينما مانح الهدية في نكد وغم.. فهو ينقل شعوره بعدم السرور على صاحب الهدية الذي لا بد وأن يكون مسرورًا وإلا ما تقدم بهديته.

وسبق أن لاحظنا أن الطفل في بداية حياته إنما يخلط بين أمه المحبة وأمه المحبطة له. وفي حالة ذلك الشاب الذي حطمه نجاحه لاحظنا كيف أن صورة عمه إختلطت بصورة رئيسية. وليس التكثيف في الحلم إلا رده إلى ذلك النوع من التعامل مع الشكل والمضمون تعاملًا مزيجًا مغريًا.

أما الرموز فما أكثرها في المرض النفسي. فالحصان لذلك الطفل الذي خافة بديل عن الأم ويرمز إلى عنف الكبر وفي جموحه وشدته للإجمال إنما يرمز إلى تلك القوى التي تتصارع في نفس الطفل. بل نجد مريضًا نفسيًا يتحاشى بعض أشكال كالخمسة والخميسة لأنها تذكره بكف الإنسان وبعض الأفعال الدنسة التي يأتي بها الشخص بيده.

ولولا أن المجال لا يسمح بتفصيل أكبر لأبرزنا أن الحلم لغة لها نحوها وصرفها و بيانها وبديعها وبلاغتها. وهذا هو حقًا ما يكون عليه الحلم إلا أن لغته لغة فقر في نحوها ثرية في بلاغتها ولا شك

أن لغة نحوها لا يتضمن أكثر من علاقة الشرط والعلية، بينما ثراؤها البلاغي يفوق كل حصر، إنما تؤدي إلى تفكير عياني أشبه بتفكير المريض النفسي. فلغة الحلم لديها من الأشكال عدد لا حصر له بينما لا تحمل إلا مضمونًا واحدًا هو مضمون الرغبة. لذلك يعد الحلم ذهانًا وقتيًا يعيشه النائم يباشر فيه تحقيق رغبته فقط بوسائل لا حصر لها وتفوت كل تقدير وتصور.

لذلك نقول أن الحلم تفكير ولكنه تفكير ذهاني. لا نجد فيه مفاهيم عامة وخاصة بل جزئيات متناثرة تتصل بالرغبة المكبوته دون أن تتصل ببعضها. ولفقره في مضمونه وثرائه في أشكاله لا يمكن النائم من الإنتقال من شكل إلى مضمون فينتج عن ذلك تفكير.

إن الإنسان سليماً كان أو مريضًا، في شعوره أو في نومه إنما يفكر. يفكر في عالمه إذا كان سليمًا وفي شعوره، ويفكر في رغبته إذا مرض أو نام.

التفكير بين العلم والفن

لو تصورنا مناظرة قامت بين مجموعة من العلماء الباحثين وبين مجموعة من الفنانين المبدعين، فماذا سيدور في تلك المناظرة؟ لا شك أن العلماء سيتفاخرون بأنهم قوم يجيدون التفكير ويسيرون فيه حسب أصول معروفة وخطط منسقة فيقودهم إلى ما يكتشفون في

أمان من الشطط ويؤدي بهم إلى أهداف واضحة. وسيتهمون الفنانين بفوضى التفكير وعفوية التأمل والإعتماد على الحدس والإلهام. ويرد الفنانون بأنهم قوم تفتح لهم أسرار الكون أبوابها في يسر عندما يعالجونها بما لهم من شاعرية وحساسية ورهافة ملكاتهم الفنية، ويتهمون العلماء بضيق أفقهم وبطء تفكيرهم وقلة حساسيتهم.

ولا شك أن العلماء سيأخذون من مكتشفاتهم ما يكابرون به الفنانون في إبداعهم. فالفنانون قد إتخذوا من السماء وأجرامها وأقمارها مادة خصبة لصيغ جمالية مبدعة، ولكنهم لم يكشفوا عن حقيقة ما تغنوا به. كذلك استطاع العماء الكشف عما به غموضًا. أسرار في الكون أدهشتنا، ولكنهم لم يكشفوا عن أي جمال فيها. بل ربما من هذا النموذج يمكننا أن نكشف عن طبيعة التفكير عند العالم والفنان: العالم يكشف فيجرد ما كشف عنه من الخيال، والفنان يكشف عن الجمال فيضفي على ما تغني به غموضًا.

لنقارن التفكير وفي الفن والعلم لنتساءل كيف يصل العالم إلى علمه؟ وكيف يصل الفنان إلى فنه؟ وهل يختلفان في تفكيرها؟ وما مصدر الإختلاف إن وجد؟

يقول العلماء أن تفكيرهم العلمي يسير حسب خطة معروفة تتكون من هذه الخطوات: ملاحظة- فروض- تجريب- إستخلاص. الخطوة الأولى يقوم العلماء فيها بملاحظة لعناصر معينة يضمها

ميدان بحثهم. فعالم الطبيعة يلاحظ أن هناك موادًا تنكمش وتتمدد، وأن المواد تختلف في درجة إنكماشها وتمددها. ثم يلاحظ أن الإنكماش والتمدد يرتبطان بدرجة حرارة المادة. في الخطوة الثانية يضع العالم فروضه ولتكن أن الحرارة تؤدي إلى تمدد المواد، وأن المعادن أكثر إستجابة للحرارة من غيرها من المواد الصلبة... وهكذا. وخطوته الثالثة هي التجريب برفع درجة حرارة بعض المواد وقياس تمددها ومقارنتها في درجات حرارة مختلفة.... وهكذا. وأخيرًا يستنتج معادلة تمدد المعادن بالحرارة ويضع قانون التمدد ويطبقه على المواد المختلفة.

من هذا النموذج نرى أن العالم يفكر بطريقة واضحة المعالم. أن العلم يقوم على إستقراء الجزئيات كلياتها Induction فالملاحظة تقود إلى إدراك مجموعة من الظواهر غير المتصلة. وتكون الفروض أول محاولة لإكتشاف مفاهيم تعميمة تقود إلى أخرى أكثر تخصيصًا. ويتمكن العالم بالتجريب من أن يصل إلى المفاهيم التخصيصية. وأخيرًا يصل إلى إختزال كبير لتلك الجزئيات في قانون عام يضمن له –ولغيره– سهولة الإنتقال بين العام والخاص، بين الشكل «الخاص» والمضمون «العام». فالقانون العلمي مجموعة من الرموز التي تدل على أشياء عامة ولكنها تحمل

مضامين خاصة يمكن أن تنقل إليها. ولننظر في قانون عام لتفسير السلوك:

س= ع × د

حيث س هي رمز سلوك «وهو متعدد المضامين» و ع هي رمز لعادة «وهي متنوعة أيضًا» و د رمز لدافع «والدوافع كثيرة».

التفكير العلمي إذا يحقق النظرية النفسية في عملية التفكير. فالعالم ينشيء المفاهيم ويستخلص منها العام والخاص وينتقل من العام إلى الخاص عن طريق التأكد بالتجارب والمحاولات.

أما الفنان فقلما يتبع تلك الخطوات ليبدع فنه فالفنان أمام مجموعة من القضبان المعدنية التي يجرب عليها العالم، إنسان لا يفكر، بل ينفعل. فربما أثاره فيها شكلها وهي مكومة تنتظر اللهب ليسخنها فيشعر نحوها بالشفقة أو يصورها أناسًا تنتظر العذاب، أو يرى فيها جمالًا من حيث ألوانها وأحجامها، ولكنه لن يهتم إطلاقًا بمعدلات تمددها وإنكماشها. أن العمل الفني بإختصار شديد، إنتقال من الواقع المادي إلى شيء آخر متجاوز لهذا الواقع المادي، إنتقال إلى فهم وإدراك جديد لذلك الواقع. ذلك ما يطلق عليه الفنان كلمة الوحي أو الإلهام أو الحدس.

ففي لحظة فجائية وبعملية ذهنية رتيبة ولكنها خارجة عن إرادة الفنان يتجلى له الواقع بصيغة أخرى لها إتصال واهن بالواقع ولها إمتداد بعيد في نفسه ونفس متذوقي فنه.

الإنتاج الفني إذا لا ينتقل من الواقع بمفاهيمه العامة والخاصة إلى واقع آخر بمفاهيم جديدة. فالماء للفنان يذكره برقة حبيبه،

والجبل بقوة الزمن، والطير في السماء بالحرية والتسامي. إن إلهام الفنان لا يقوم على إستقراء من الجزئيات إلى الكل بل إلى إستنباط Doduction من الكل بصور أجمل.

إذا قارنا العالم بالفنان في تفكيرهما لوجدناهما على طرفي نقيض فالعالم يجهد نفسه في تركيب العالم وبنائه والفنان يجهد في تفكيك العالم وتجزيئه العالم يسعى إلى قوانين عامة تختصر الكون وتختزله والفنان يميل إلى إكتشاف الكثير في القليل ومضاعفة معاني الأشياء بدلًا من إختصارها. فالعالم يحاول أن يكشف عن العناصر الأساسية للطبيعة ويعددها في مائة عنصر أو أقل، والفنان يرى في كل شجرة جمالًا ليس في جارتها وفي كل زهرة رونقًا ليس في غيرها. العالم يفكر في عالمه والفنان ينفعل به.

إن مصدر الإختلاف بينهما يتضح لنا بجلاء. لقد قلنا إن الوجدان يعطل التفكير وإن التفكير يوقف الوجدان. فالأختلاف بين

العالم والفنان ينبع من تلك العلاقة التي قامت بين فكرنا وإنفعالنا. فالعالم يحاول أن يكتشف للظواهر المتعددة قانونًا موحدًا يفهمها به ويحدها من خلاله. إنه بذلك يكف وجدانه ويعطل إنفعاله بالأشياء المتعددة ليتمكن بذلك من أن يفكر فيها بحيده وأن يتخلص من جذب التفاصيل لإنتباهه، فتتكشف له العلاقات بين الأشياء والصلات بين الأجزاء. أن بحث العالم عن شكل عام ينظم التفاصيل الجزئية والخاصة، له طبيعته المميزة فإستغلال الأشياء كل بمضمون دون حصولها على شكل واحد لن يتيح للإنسان أن يستفيد منها. وتكون مهمة العالم إكتشاف ذلك- الشكل العام حتى يختصر من جهودنا في التنقيب عن فوائد عالمنا فقانون التمدد يتيح لنا أن نعرف ماذا سيكون عليه الحديد عندما نستعمله في إنشاء كوبري فوق نهر. ولو أن العالم أنبهر وإنفعل بمادة الحديد وإستجاب لذلك المعدن بشاعرية ما أمكنه أن يصل إلى قانون تمدده وانكماشه.

أما الفنان فأنه بحدسه وإنفعاله يعطل التفكير ويتجه إلى تحليل الواقع إلى جزئيات لينطبع به ويبحث له عن مضامين. أن طاقته الفنية وتدفق وجداناته يمكنه من أن يضفي على كل جزء من عالمه مضمونًا مستقلًا يحمل الكثير مما في نفسه.

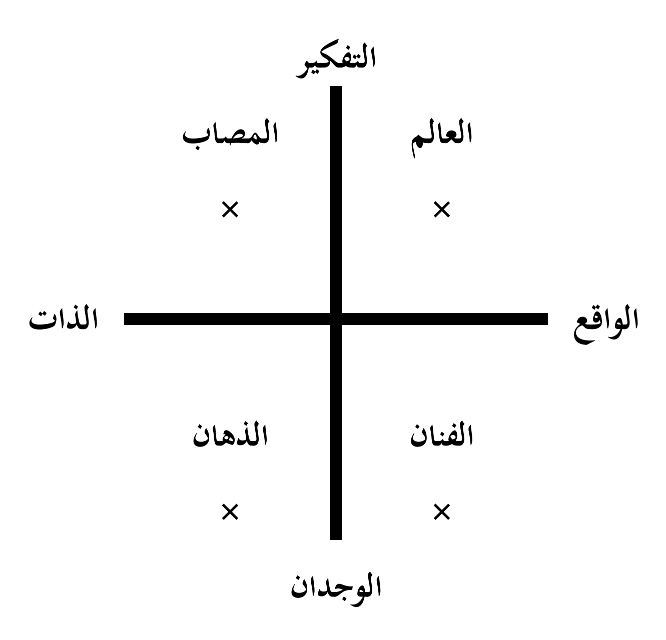
لذلك يتميز العمل الفني بأنه عمل يحمل من شخصية الفنان جانبًا كبيرًا إذا قورن بما يحمله القانون العلمي من شخصية العالم.

ولا مراء إذا من الخوض في نقاش حول نقطتين أساسيتين ما هي علاقة تفكير العالم والفنان بالواقع؟ وما هي الآثار التي تترتب على نمط علاقتهما بالعالم؟

إن إلتزام تفكير العالم بالواقع وتعطيله لوجداناته حتى لا يصطبغ العالم بمشاعره يمكنه من أن يصل إلى شكل عام يصل إليه ويتفهمه كل من يعطل وجداناته ويطلق تفكيره. وذلك الأسلوب من الأرتباط بالواقع يجعل القانون العلمي تفكيرًا غير خاص بشخص، بل هو تفكير إنساني عام. فالعالم بقانونه إنما يقدم نموذجًا لوحدة التفكير الإنساني الذي يجعل غيره من الناس يرتبطون بالواقع إرتباطه به.

أما تعطيل الفنان لتفكيره وأطلاق وجداناته فيجعله قادرًا على تجاوز العالم ومنح كل شكل مضمونًا خاصًا. وهو بذلك يخاطب إنفعال الناس بذلك العالم ويحثهم على تجاوزه والتنقيب عن إنفعالهم به والأرتباط الذي يقوم بين الفنان وعالمه يجعل تفكيره خاصًا، أي هو إنفعال كما سبق أن أوضحنا. فالفنان بفنه يقدم نموذجًا لوحدة وجدان الأنسان الذي يجعل الناس ينفعلون أنفعاله بالعالم.

وكي نبرز الأمر للنظر في شكل يوضح الموقف. لو أن الواقع كان على طرف والذات على طرف آخر، ولو أن التفكير على طرف والوجدان على الطرف الآخر فأين الفنان من العالم؟



العالم أميل إلى التفكير في العالم والفنان أقرب إلى الأنفعال به، وذلك في مقابل الذهاني الأكثر ميلًا الإنفعال بالذات، والعصابي الأقرب إلى التفكير في الذات.

العالم إذا سوي عصابي، لأنه يقاوم ذاتيته ويتجه إلى الواقع ولكنه يقوم بذلك بتعطيل الذاتية. والفنان عصابي سوي لأنه يقاوم الواقع ويعبر عن ذلك ولكنه يقوم بذلك معبرًا عن مشاعر الناس أي

معبرًا عن الواقع الإنساني في مقابل الواقع المادي الذي ينشغل به العالم.

من ذلك نجد أن الآثار التي تترتب على إختلاف طبيعتى تفكير العالم والفنان تصب في النشاط الأنساني برمته. أن العالم بسوائه العصابي يقود الأنسانية إلى إستغلال أصلح للعالم ويمكنها من الجمود وعدم الأنفعال به. إنه بذلك يعبر عن ميل الإنسان إلى النضج وإستعمال التفكير الرمزي لخدمة أغراضه الحيوية. أما الفنان بعصا به السوي فيمكن الإنسان من عدم أغفال ذاته أو ذلك الشق الهام من نفسه الذي كبته ليشعر بفوائد ما يقدمه له العلم. أن الفنان يمثل الوجدان للبشرية والعالم يحقق التفكير لها. وتعاونهما معًا ووجودها سويًا يمكننان الأنسان من الإتزان، تماماً كما يحدث في التفكير السوي الذي تنسجم العمليات الذهنية فيه من الوجدانات المناسبة له. فكل إنسان يتضمن الفنان والعالم في نفسه بنسب متفاوته. فبعضنا أميل إلى العلمية ولكنه لا يخلو في لحظات من أحكام شاعرية. وبعضنا أميل إلى الشاعرية ولكنه لا ينفك يفكر كعالم في أحيان. بل أن التناقض بين رغباتنا «وجداناتنا»، وبين عالمنا «تفكيرنا» لا ينتهي في الأنسان لذلك لا بد من لحظات أسود فيها الرغبات فيظهر الفنان فينائم يختفي ليظهر العالم عندما نفكر في ماديات حياتنا.

أمعنى هذا أن العالم فنان أيضًا، وأن الفنان عالم؟ لقد أتحفنا التاريخ بأكثر من فنان عالم وعالم فنان. فاينشين العالم كان من أشد الناس حساسية للموسيقى، وفرويد الطبيب كان من المهتمين بالآثار وفنونها. بل أن ليوناردو دافنش يحار الناس في تصنيعه بين العلم والفن. ولكن لو أردنا أن نجيب عن السؤال فيجب أن نلتزم بتعريفنا للعالم والفنان من خلالًا معرفتنا بالتفكير.

أن المثل الذي يضرب كثيرًا للدلالة على تدخل الألهام في الكشوف العلمية هو مثل التفاحة الساقطة أمام نيوتن، أو مثل أرشميدس في إكتشافه أسلوب قياس الأحجام. أن أهم المكتشفات العلمية التي هزت الحضارات كانت وليدة إلهام وحدس مفاجئ لعالم متمرس، فكل الملاحظات والفروض والتجارب التي قام بها نيوتن أو أرشميدس لم تكن لتصل بهما إلى كشفهما. فقد توقف التفكير بهما عند حد فلم يتقدما.

ولكنهما أمام ملاحظة بسيطة كسقوط الأجسام من أعلى إلى أسفل أو إرتفاع منسوب الماء عند إغراق جسم صلب به، هذه الملاحظة التي تكررت عددًا لا نهائيًا أمام البشر جميعًا، كانت أقيم من الخطة العلمية التي كشفوا بها تفاصيل أخرى.

لذلك يمكن القول بأن العالم المدقق يفكر في لحظات بأسلوب الفنان الحدس الإلهامى ليتخطى عيوبًا كثيرة في أساليب

ملاحظته. بل أن سيجموند فرويد صاحب التحليل النفسي يقول عن كشفه: لقد قيض لي أن أكتشف أكثر الأمور بداهة. يمكننا بذلك أن نجد الفنان في كل عالم أصيل، بل وأن نميز بين عالم عبقرى يسعفه إلهامه وتفكيره الإستنباطي عندما يعجز تفكيره الإستقرائي عن خدمته، وبين عالم عادي لا يجد في الإلهام معينًا ولا يعينه إلهام أبدًا.

كذلك نجد للفنان الملهم عالمًا في داخله. فالأديب البارع والصور المبدع لابد أن يستعينا عند إخراجهما لمليكيتهما الفنية بالأساليب الفنية الدقيقة حتى يجعلا فنهما في إطار ملائم. فإتقان الأديب للغة وأسرارها ودربة المصور في فنية خلط اللون وإستقلال الأشياء بألوانها ومزيجها ضروري لفنهما.

بين المنطق والإلهام:

تثير هذه القضية نقطة مهمة، تتعلق بالتفكير الإنساني. ما دام العالم يفكر تفكير الفنان إذا فشل تفكيره العلمي، وما دام الفنان بعد أن يصل بحدسه إلى المضمون الوجدانى يعود إلى الصيغ التخطيطية من التفكير، ما دام ذلك يحدث لكليهما فلابد وأن يكون التفكير الإنساني مزيجًا من حدس ومنطق، من إلهام و تأمل. فالعالم في الواقع مزيج من غموض ووضوح. أما الغموض فقد يتضح بالإلهام والوضوح يلتئم بالمنطق. لذلك

نجد أن التفكير الإنساني طيع مرن به من الإمكانيات ما يكفل له أن يعالج الواضح والغامض معًا. فالإنسان في تفكيره الرمزي يحلل الكل إلى جزئياته ويجمع الجزئيات في كل. إنه بذلك ينتقل من الشكل إلى المضمون ويعود من المضمون إلى الشكل تمامًا كما ينتقل الفنان إلى العلم والعالم إلى الفن.

وإذا أردنا أن نجمع ما وصلنا إليه في دراستنا لوجدنا أننا في سوائنا وفي مرضنا، في علمنا وفي فننا، في وعينا وفي نومنا إنما نمارس الإنتقال من الشكل إلى المضمون وبالعكس. فقد وجدنا أن الإنسان في تطوره يكبت جانبًا من رغباته إذ ينتزع منها شكلها ويتركها مضمونًا وجدانيًا لا شعوريًا. وتعاوده تلك الوجدانات فتتسرب إلى أحكامه على الأمور وتؤثر في تفكيره. ولكنه قادر على إستغلال هذا اللاشعور في خلق فني يسهم به في إمتاع الآخرين وجدانيًا، وقادر أيضًا على أن يشحن شعوره بتلك الطاقة المكبوتة والمحركة للعالم أن يكتشف ويخترع.

إن امتزاج النفس الإنسانية من الشعور واللاشعور هو الذي يخلق العالم والفنان. فالعالم خاضع للتفكير الشعوري الذي يبدو خاليًا من الوجدان وإن كانت شخصية وجدانية الفعالية مضبوطة وتحت سيطرة الفكر. والفنان خاضع للاشعور الذي يبدو خاليًا من الفكر والمنطق وإن كان إطاره الفكر والعلم الذي يتبع اللاشعور. إن

الفكر والتفكير عندما يسيطران على اللاشعور ويستغلانه يخلقان العلم، أما إذا إتبع الفكر والتفكير لا شعور الشخص فإن الفن يكون النتاج.

ولا شك أننا بكشفنا للفنان في كل عالم وللعالم في كل فنان إنما نكرر حقيقة أخرى وصلنا إليها وهي وجود لا شعور في كل شعور ونبوع الشعور من لا شعور. وتفيدنا تلك العلاقة التي نجدها بين الحدس والتفكير. أن تفكير العالم يقر به من مشاكل غامضة تبدو بعض عناصرها قريبة منه ولكن تفكيره يعجز عن إدراكها. في هذه اللحظة ينشط حدسه ولا شعوره ليعينه على ذلك الفهم.

بذلك يكون التفكير خطوات تقربه من لحظة الإلهام التي تكشف له فجأة عما غمض. كذلك الفنان في حدسه وإلهامه إنما يؤجل التفكير حتى تتجلى له الطبيعة فجأة في صيغة جديدة فيشرع في التفكير فيها بأسلوبه الفني.

أن التفكير المنطقي خطوات تقربنا من إلهام وحدس بالأمور وكذلك الحدس والإلهام يعدان تفكيرًا مضمرًا، تفكيرًا خافتًا سرعان ما يشتد عوده ليعين الفنان على خلقه وابتكاره.

التفكير الإنساني سلسلة من الفهم المباشر والفهم المنظم التمهيدي وكل إنسان يمتزج فيه التفكير بالإلهام في نسب متفاوتة. وكلما كان ذلك المزيج مصحوبًا بالوجدان الإنساني زادت النزعة الفنية وكلما قل ذلك العنصر فيه وزاد عنصر الواقعية تحول إلى علم. وكلما إنسجم المزيج الفكري والوجداني، كلما إقترب الإنسان من السواء ومن الخلق.

الفهرس